٦٢٥

معارك الأنبياء

العلامة السيد مرتضى العسكري
عميد كلية أُصول الدين طهران

معارك الأنبياء حول الربوبية:

إنَّ تاريخ الشرائع السماوية يدلّ على أنّ جُلَّ الجبابرة الذين وقفوا بوجه الأنبياء كان محور صراعهم (الربوبية) لا (الخالقية)، فقد كان أكثر أقوام الأنبياء يُقرُّون بأنّ الله خالق جميع الموجودات وإن كانوا قد يسمّونه باسمٍ آخر؛ مثل اليهود الذي يسمّون الله (يهوه)، كما أخبر الله عنهم وقال تعالى:

أ ـ ﴿وَلئن سَألتهُم مَن خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ليقُولُنَّ الله﴾ (لقمان ٢٥).

ب ـ ﴿وَلئن سَألتهُم مَن خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ خلقهُنَّ العَزيزُ العَليم﴾ (الزخرف ٩).

ج ـ ﴿وَإن سَألتهُم من خَلَقهم لَيقُولُنَّ الله فَأنَّى يُؤفكُون﴾ (الزخرف ٨٧).

ونبدأ بذكر معركة كليم الله موسى (عليه السلام) مع فرعون لوضوح أبعاد المعركة فيها:

موسى الكليم (عليه السلام) وفرعون:

جاء في القرآن مراتٍ كثيرةً ذكر قصة موسى الكليم (عليه السلام) وطاغوت عصره فرعون، ومِن جملتها ما جاء في سورة (النازعات):

إنَّ فرعون بعد أن حاججه موسى (عليه السلام) وشاهد الآيات الالهية التي كانت معه جمع

٤٨٨٠

جمعاً عظيماً من أهل مصر ونادى فيهم:

﴿أَنا رَبُّكُمُ الأعلى﴾ (النازعات ٢٤).

وهو يعني من قوله هذا انّه إذا كان للدجاج ـ مثلاً ـ ربّ يملكه ويطعمه ويربّيه ويسنّ نظاماً لحياته، فإنّ فرعون ـ أيضاً ـ يقول ﴿أَليسَ لي مُلكُ مِصر وَهذهِ الأنهارُ تَجري مِن تَحتي﴾ (الزخرف ٥١).

إنّ فرعون مصر في ذلك الزمان كان يملك كلّ ما في مصر، وعلى هذا فإنّه كان يرى أنّه هو الذي يطعم المصريّين، ويمدّهم بما يحتاجون إليه كافّة، إذاً فهو الذي يربّيهم، وهو الذي ينبغي أن يشرّع نظاماً لحياتهم، فإذا ما شرّع: أنّ الاسرائيلي يجب أن يخدم المصري يكون ذلك شرعاً وديناً يجب العمل به، وإذا سنّ نظاماً بذبح أبناء الاسرائيليين واستحياء نسائهم، فذلك دين يجبُ العمل به. كان هذا معنى قول فرعون ﴿أنا رَبُّكمُ الأعلى﴾ ولم يَدّعِ في قوله هذا أنّه خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

فماذا كان يقول له موسى الكليم (عليه السلام)؟ وما هي الرسالة التي أُمر هو وأخوه هارون بتبليغها لفرعون؟ إنّ الله سبحانه وتعالى عَيَّنها في خطابه إيّاهما وقال لهما:

﴿اذهَبَا إلى فِرعونَ انَّه طَغَى... فَأتياهُ إنّا رَسُولا ربِّك فَأرسل مَعَنا بَني إسرائيل ولا تُعذِّبهم قَد جِئناكَ بآيةٍ مِن ربِّك﴾ (طه ٤٣ ـ ٤٧).

يقول لهما في هذه الآية:

يا موسى ويا هارون اذهبا الى فرعون فقولا إنّا رسولا ربّك الذي أنشأك وربّاك وأكملك، قولا له أنت مخطئ يا فرعون في ادّعائك الربوبية، وإنّ معنا آيةً وشاهداً من ربّك على صدقنا.

وبعد مشاهدة فرعون آيات الله مع موسى كابَرَهُ وحاجَجَة وقال: إن كنتما لا تقبلان ربوبيّتي، وتقولان إنّ الربوبية لغيري وعلينا أن نأخذ نظام الحياة منه، فمن هو هذا الربّ؟

﴿فمن رَبُّكما يا موسى﴾ (طه / ٤٩).

أورد القرآن هنا بايجاز جواب موسى (عليه السلام) لفرعون وقال:

﴿قالَ ربُّنا الّذي أعطى كُل شيءٍ خَلقهُ ثُمَّ هَدى﴾ (طه / ٥٠).

٤٨٨١

أي أتَّم خلق كلِّ شيءٍ وفصّل تمامَ خلقِ الشيء في سورة الأعلى حيث قال تعالى: ﴿فسوّى﴾، أي هيّأه لقبول الهداية ﴿ثمّ قدّر﴾ حياته ﴿فهدى﴾ كلّ صنفٍ من الخلق بما يتناسبُ وفطرته، وهدى صنف الإنسان من الخلق بواسطة الرسل.

وأراد فرعون أن يلقي الشبهة في استدلال موسى (عليه السلام) هذا، وقال: ﴿فَما بال القُرون الأُولى﴾ (طه ٥١)، أي إذا كان الربّ يهدي الناس الى النظام الذي شرّع لهم بواسطة الرسل فكيف هدى الربّ القرون الأُولى؟ ومن هم الذين أرسلهم اليهم وكيف كانت شرائعهم؟

قال موسى (عليه السلام):

﴿عِلمُها عِند رَبِّي في كتابٍ لا يَضلُّ ربِّي ولا يَنسى﴾ (طه / ٥٢).

إنَّ علم أولئك القرون عند الربّ مكتوب في كتاب لا يضلّ ولا ينسى، وفصّل موسى (عليه السلام) شرح صفات الربّ وقال:

﴿الذي جَعَلَ لكُم الأرضَ مهداً وسَلَكَ لكُم فيها سُبلاً وَأنزلَ مِنَ السّماء ماءً فَأخرجنَا بِهِ أزواجاً مِن نبات شتىٰ * كُلُوا وارعَوا أنعامكم إنَّ في ذلك لأياتٍ لأُولي النُّهى﴾ (طه / ٥٣ ـ ٥٤).

في هذا المقطع ذكر القرآن احتجاج موسى (عليه السلام) في مقابل قول فرعون ﴿أليسَ لي مُلك مِصرَ وهذه الأنهارُ تَجري مِن تَحتي﴾ (الزخرف ٥١)، وإنّه قال له وللملأ من حوله: إنّ ربكم هو الخالق الذي خلق الأرض وجعلها بمقتضى ربوبيته مهداً للإنسان وشقّ فيها طرقاً للسير، ومنها أرض مصر، وأنزل من السماء المطر الذي يتكون منه الأنهار، ومنها نهر النيل، وأنّه أخرج من الأرض بسبب الماء نبات الأرض متاعاً للإنسان والحيوان.

وأُفحِمَ فرعونُ بهذا المنطق وتبلّدَ وأراد أن يلقي شبهةً في حجج موسى البيّنات كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن موقفه وقال: ﴿وَلَقَد أريناهُ آياتنا كُلَّها﴾ (طه ٥٦) ـ الكونية العامّة وما جاء بها موسى (عليه السلام) من آياتٍ خاصة ـ فكذَّب ـ فِرعونُ ـ وَأبى وقال: ﴿أجئتنَا لِتخرجَنا مِن أرضِنا بسحركَ يا مُوسى * فلنأتينَّكَ بسحرٍ مِثلِهِ فاجعل بيننَا وَبينك موعِداً لا نُخلفُهُ نحنُ ولا أنت مَكانا سُوى﴾ (طه ٥٧ ـ ٥٨).

إنّ موسى كان من بني إسرائيل وهم غرباء في أرض مصر مستعبدون لأهلها، وأراد فرعون بقوله ﴿أجئتنا لتُخرجنا مِن أرضنا﴾ ان يهيج الملأ من حوله على موسى الغريب، وأيضاً ألقىٰ الشبهة في آيتي العصا واليد بقوله (بسحرك يا مُوسى) وقد كان السِّحر منتشراً في أرض مصر، وفيها العدد الكثير من أتباع فرعون، والسِّحر تخييل لا حقيقة له، وخداع للبصر والحواس، وقد يصل الى خداع الإحساس عندما يشاهد الإنسان أشياء لا وجود لها، وكانت آية موسى من صنع قدرة الله سبحانه وتعالى التي جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم (عليه السلام)، ولكن أنّى للعامّة من الناس قوّة تمييز الحقّ من الباطل والتخييل من الحقيقة، ثمّ إنّ الكثرة قد تغلب، ولهذا كله اقترح فرعون من موقع القوّة على موسى (عليه السلام) وقال: ﴿فَلَنأتِيَنَّكَ بسحرٍ مِثلهِ فَاجعل بَيننَا وَبينَكَ مَوعِداً لا نخلفُهُ نحنُ ولا أنت مكاناً سُوى﴾ (طه ٥٨).

إنّ فرعون تحدّى مُوسى باستعلاء، وجعل لموسى (عليه السلام) تعيين الموعد، وقبل موسى (عليه السلام) التحدّي واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة حيث يأخذ الناس فيه زينتهم، ويتجمعون في الميادين المكشوفة وقال: ﴿مَوعِدُكم يومُ الزِّينةِ وان يُحشرَ النّاسُ ضُحى﴾ (طه ٥٩). والضُّحى أنسب الأوقات في النهار ﴿فَتَولَّى فِرعونُ فَجَمعَ كيدَهُ﴾ (طه ٦٠).

وجاء ذكر جانب آخر من مُواجهة الكليم مع فرعون في سورة الشعراء، حيث أخبر الله سبحانه عن ارسال موسى وهارون (عليهما السلام) إلى فرعون ونتيجة المواجهة وقال: ﴿فأتيا فِرعونَ فقولا إنّا رسُولا ربِّ العالَمين... قالَ فِرعونُ وَما ربُّ العالمين * قالَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وَما بينهُما إن كُنتم مُوقنين * قالَ لِمن حَولهُ ألا تستمعُون * قالَ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين * قالَ إنَّ رسُولكمُ الذي أرسلَ اليكمُ لمجنون * قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وَما بينهُما إن كنتُم تعقِلون﴾ (الشعراء ١٦ ـ ٢٨).

وبعد طلب فرعون آية من موسى (عليه السلام) ورؤيته آيتي العصا واليد، ﴿قالَ للملأ حولهُ إنّ هذا لساحرٌ عليم * يريدُ أن يُخرجكُم من أرضكُم بسحرهِ فماذا تأمرون * قالوا أرجه

وأخاه وابعث في المدائنِ حاشرين * يأتوكَ بكلِّ سحارٍ عليم * فجُمعَ السَّحرةُ لميقاتِ يومٍ معلومٍ * وقيلَ للنّاس هَل أنتُم مجتمعون * لعَلَّنا نتَّبعُ السحرة إن كانوا هُمُ الغالبين * فلمّا جاءَ السَّحرةُ قالوا لِفرعونَ أئنَّ لنا لأجراً إن كُنا نحنُ الغالبين * قالَ نعَم وإنكُمُ إذاً لمنَ المُقربين * قالَ لهُم موسى ألقُوا ما أنتُم مُلقون * فألقوا حِبالهُم وَعصيَّهُم وقالَوا بـعزَّة فرعَون إنا لنحنُ الغالبون﴾ (الشعراء ٣٤ ـ ٤٤).

وفي سورة الأعراف:

﴿فلمّا ألقوا سحروا أعينَ الناسِ واسترهبُوهُم وجاءوا بسحرٍ عَـظيم * وأوحَـينا إلى مُوسى أن ألقِ عَصاكَ فاذا هِي تلقفُ ما يأفكُون *... وأُلقيَ السَّحرةُ سَاجدين * قالُوا آمَنّا بربِّ العالَمين * ربِّ مُوسى وهارُون * قالَ فرعَونَ آمنتُم بِهِ قبل أن آذن لكُم إنّ هذا لمكرٌ مكرتُموهُ في المدينة لتُخرجوا مِنها أهلها فَسوف تَعلمون * لأُقطعنَّ أيديكُم وأرجلكُم مِن خلافٍ ثُم لأُصلبنَّكم أجمعين * قالُوا إنّا إلى ربِّنا مُنقلبون * وما تنقُم مِنّا إلّا أن آمنا بآيات ربِّنا لمّا جاءَتنا ربَّنا أفرغ عَلينا صبراً وتوفَّنا مُسلمين﴾ (الآيات ١١٦ ـ ١٢٦).

وفي سورة الشعراء:

﴿قالَ فرعونُ إنّه لكبيركُم الّذي علّمكُم السِّحر﴾ (الآية ٤٨).

في هذه الآيات جاء عن لسان موسى أنّه قال لفرعون: إنّا رسُولا ربِّكَ، جئناك بآية من ربّك.

وفي الآيات الماضية حكى القرآن عن فرون أنّه قال لأهل مصر:

﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾.

وأنّ موسى (عليه السلام) أُوحي اليه أن يقول لفرعون:

﴿إنّا رسولا ربِّك، جِئناك بآيةٍ مِن ربّك﴾.

وأنّ فرعون قال:

﴿فمن ربُّكُما يا مُوسى﴾!

وأنّ موسى (عليه السلام) قال له:

٤٨٨٤

﴿ربُّنا الّذي أعطى كلَّ شيء خَلقهُ ثُـمَّ هَدى﴾.

وأنّه أجاب عن علم القرون الأُولى أنّه:

﴿عِندَ ربّي الذي جعل لكم الأرضَ مهداً﴾.

وفي مورد آخر: فقولا له: ﴿أنّا رسولا ربّ العالمين﴾.

وأنّ فرعَونَ قال: ﴿وما ربُّ العالمين؟﴾.

وأنّ موسى (عليه السلام) قال: ﴿ربُّ السَّموات والأرْضِ وَما بينهُما﴾.

﴿ربّكُم وَربُّ آبائكم الأوّلين﴾.

﴿ربُّ المشرقِ والمغرب وما بينهُما﴾.

وأنَّ السَّحَرَة لمّا رأوا آية العَصا تلقَفُ ما يأفكون قالوا:

﴿آمنّا بربِّ العالمينِ ربِّ مُوسى وهارون﴾.

وأنَّهم قالوا لفرعونَ لمّا قالَ لهُم لأُقطعنَّ أيديَكُم وأَرجُلَكُم...:

﴿لا ضيرَ إنا إلى رَبّنا مُنقلبون * وما تنقُم مِنّا إلّا أن آمنا بآيات ربِّنا لمّا جاءتنا ربَّنا أفرغ عَلينا صَبراً وتوفَّنا مُسلمين﴾.

يتضح جليّاً ممّا جاء في القرآن الكريم: أنّ مواجهة الرسولين موسى وهارون (عليهما السلام) مع فرعون وملئِهِ قد تعدّدت، وتعدَّدَت المحاورات بين الرسولين وبينه، كما تعددت الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضّفادع، والدم، وأنّ المحاورات كلّها كانت تدور حول الربوبية، وأنّ الرسولين كانا يقولان: ربُّنا وربّكم هو ربّ العالمين رب السموات والأرض وما بينهما وربّ القرون الأولى، ربّ المشرق والمغرب وما بينهما وربّ أبائكم الأوّلين، وأنّ ربّ الجميع واحد، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى، وأنّ السحرة ادركوا أنّ سحرهم كان تخييلاً لا حقيقة فيه، وأنّ اثر السحر ينتهي، وأن العصيّ والحبال ـ مثلاً ـ التي كانت تموج في الساحة كالحيات كانت تعود الى حالتها الاولى عصياً وحبالاً، ولكن آية العصا ابتلعتها جميعاً ولم يبق منها عين ولا آثر وهي خارجة عن قدرة غير خالقها ربّ العالمين فقالوا: آمنا بربّ العالمين، ربّ الرسولين موسى وهارون (عليهما السلام) الذي أرسلهما لهداية الناس.

٤٨٨٥

معارك ابراهيم (عليه السلام) حول توحيد الإلوهيّة والربوبيّة:

قبل عصر موسى الكليم (عليه السلام) بدهر، جاهد ابراهيم الخليل أنواعاً من الشرك في عصره منها:

أ ـ جهاده في توحيد الالوهية:

حكى الله خبر جهاد ابراهيم مع قومه في توحيد الالوهية في سور الأنبياء والشعراء والصافّات؛ في كل منها حكى عن جانب من خبر جهاده وكيف حاججهم في ما يعتقدون، وأنّه انتهى الأمر بكسره آلهتهم وإلقائهم إيّاه في النار، وكيف جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، ونترك الحديث حوله لندرس في ما يأتي ما فعله في شأن توحيد الربوبية باذنه تعالى:

﴿قالوا ءأنتَ فعلتَ هذا بِآلهتنا يا ابراهيمُ قالَ بل فعلَهُ كبيرُهُم هذا فاسألوهُم إن كانُوا ينطِقُون﴾.

أي فعله كبيرهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون. ولّما كانت الأصنام لا تنطق فانّ كبيرهم لم يكسرها. هاهنا كلّم الخليل قومه.

أخبر الله عن محاججة ابراهيم (عليه السلام) مع من اتخذوا الكواكب أرباباً، ولم يخبرنا بأيّ معنى اتخذوها أرباباً، وقد وجدنا في أخبار المشركين أنّ منهم من كان لا يفرّق بين الربّ والإله، وأنّ الأنبياء والرسل (ص) كانوا يجاهدون مشركي اُممهم في توحيد الربوبية كما بيّنّاه سابقاً.

وقد أخبر الله عمّا جرى لإبراهيم (عليه السلام) مع عبدة الكواكب في سورة الأنعام، وقال:

﴿وكذلكَ نُري إبراهيمَ ملكُوتَ السمواتِ والأرضِ وليكُونَ منَ المُوقنين * فلّما جنَّ عليهِ الليلُ رأى كوكباً قالَ هذا ربي فلّما أفلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفلين * فلّما رأى القمَر بازغاً قالَ هذا ربيِّ فلّما أفلِ قالِ لئن لم يهدني ربّي لأكُونَنَّ منَ القومِ الضالين * فلّما رأى الشمسَ بازغةً قالَ هذا ربي هذا أكبرُ فلّما أفلَت قالَ يا قومِ إني بريءٌ مِما تُشركون * إنّي وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المُشركين * وحاجّهُ قومهُ قالَ أتُحاجُّونّي في الله وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشرِكُونَ بهِ أن يشاءَ ربي شيئاً وسِعَ ربي كُلَّ

شيءٍ عِلماً أفلا تتذكَّرون﴾ (الآيات ٧٥ ـ ٨٠).

كلّم الخليل هنا عبّاد الكواكب من قومه بلغتهم في معنى الربّ، وكان قوله (هذا ربيّ) للكوكب والقمر والشمس على سبيل التورية والاستفهام، أي أهذا ربّي؟ مثل قوله لعبّاد الأصنام عندما كسر أصنامهم وسألوه.

ب ـ جهاد إبراهيم (عليه السلام) في توحيد الربوبيّة بمعنى تربية الأجسام:

كان كثير من البشر في العصور القديمة يعتقدون بتأثير الكواكب على عالمنا هذا وما فيه من إنسان وحيوان ونبات بإنزال المطر وحبسه، ونشر السعادة والشقاء للإنسان، والجدب والرخاء والصحّة والمرض في مجتمعه، وكثرة الموت وقلّته للإنسان والحيوان والنبات، ونشر المحبّة أو النفور بين الاثنين، أو إلقاء محبّة انسان في نفوس الآخرين، وما شاكل كل هذه الأُمور، ومن ثم يجرون بعض الطقوس العبادية مع تبخير العود ذي الرائحة الطيّبة وسائر الروائح العطرة، ويتلون أوراداً وأدعية ويطلبون منها الخير ودفع الشرّ، وقد قرأت شيئاً عن ذلك في مخطوط منسوب للسكاكي (ت ٦٢٦ هـ): فيه أنواع من الطلاسم وأدعية ومناجاة لبعض الكواكب مثل الزهرة والمرّيخ وغيرهما، وأحياناً في الخطاب لبعضهم يخاطب باسم الربّ، ولم يثبت عندي أنّ الكتاب من تأليف السكاكي. وذكر ابن النديم ـ أيضاً ـ في أخبار الصابئة من المقالة التاسعة من الفهرست عن بعض فرق الصابئة أنهم يعبدون بعض الكواكب ولهم طقوس خاصّة بهم[١].

ج ـ جهاد ابراهيم (عليه السلام) في أمر توحيد الربّ المشرِّع للنظام:

أخبر الله عن ذلك وقال في سورة البقرة:

﴿الم ترَ االى الّذي حاجَّ ابراهيمَ في ربِّهِ أن آتاهُ اللهُ المُلكَ إذ قالَ ابراهيمُ ربي الذي يُحيي ويُميتُ قال أنا أُحيي وأُميتُ قالَ ابراهيمُ فإنَّ الله يأتي بالشمسِ مِنَ المشرِقِ فأتِ بها من المغربِ فبُهتَ الذي كفَر...﴾ (الآية ٢٥٨).

إن منطق الخليل في هذه الآية هو منطق القرآن في سورة الأعلى، وأنّ الربّ هو الله

٤٨٨٧

الذي خلقَ فسوَّى والذي قدَّر هدى، وأنّ مثل جميع الخلق في ذلك مثل المرعى الذي أخرجه الربّ ثمّ جعله يابساً أحوى؛ أي أنشأ الحياة للموجودات ثمّ أماتها.

كان استدلال ابراهيم قويّاً وواضحاً، وأراد طاغوت عصره أن يغشي هذا الاستدلال بغطاء من التضليل، فقال:

إن كانت الربوبية لمن يحيي ويميت فإنّي أُحيي وأُميت، وأمر بسجين محكوم بالإعدام فأطلق سراحه، وبإنسان بريء عابر طريق فأعدم، وبذلك ألقى الشبهة في نفوس الملأ حوله.

ولم يسترسل ابراهيم (عليه السلام) في الجدال معه في معنى الإحياء والإماتة بل احتجّ على الطاغوت بأمر محسوس واضح الدلالة على زيف دعوى الطاغوت، وقال: فإنّ ربي الله يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت ربّاً فغيّر هذا النظام وأت بالشمس من المغرب، فبهت الذي كفر.

كان شرك طاغوت عصر ابراهيم (عليه السلام) من نوع شرك طاغوت عصر موسى (عليه السلام)؛ كلاهما ادّعيا الربوبيّة بمعنى أنّ لهما حقّ تشريع نظام الحياة للانسان؛ تشابهت دعواهما وتشابه جواب الرسولين (عليهما السلام) لهما وقالا: إنّ ربّ الإنسان الذي شرّع له نظام الحياة هو ربّ جميع الموجودات والّذي أنشأ حياة الموجودات وسنّ لها نظاماً لإدامة وجودها في الحياة، وهداها كيف تديم حياتها وفق ما سنّ لها من نظام، وهو الذي يميت كلّ الأحياء.

كان هذا منطق ابراهيم (عليه السلام) في دعوته للتوحيد مع المشركين كما أخبر الله عنه في سورة الشعراء، قال:

﴿فإنّهم عدُوٌّ لي إلّا ربَّ العالمين * الذي خلقني فهو يهدين﴾ إذ قال موسى (عليه السلام) لفرعون: ﴿ربنا الذي أعطى كُلَّ شيءٍ خلقَهُ ثُمَّ هدى﴾ كما قال جدّه ابراهيم (عليه السلام) لقومه ﴿ربُّ العالمين * الذي خلقَني فهُوَ يهدينِ﴾ (الآيات ٧٩ ـ ٨٢).

ثمّ شرح ابراهيم ربوبية الله وقال:

﴿والّذي هُوَ يُطعمني ويسقينِ * وإذا مرضتُ فهُوَ يشفينِ * والذي يُميتُني ثُمَّ يُحيينِي

٤٨٨٨

* والّذي أطمعُ أن يغفِر لي خطيئتي يومَ الدين﴾ (الشعراء ٧٩).

والقرآن حين يكرّر أخبار محاججات الرسل مع أقوامهم يذكر في كلّ مرة جانباً من احتجاجهم وفق مناسبة ما جاء في السورة من توجيه فكري وإرشاد لمن كان حول الرسول من مسلمين ومشركين ويهود ونصارى. وليس القرآن كتاب تاريخ كي يورد الخبر مسلسلاً كما وقع.

بعد دراستنا معارك الأنبياء ومعرفتنا أنّ جلّ معاركهم كانت حول ربوبية ربّ العالمين؛ أي أنّ ربّ العالمين هو ربّ الإنسان الذي يقدّر حياته ويشرّع له نظاماً يتناسب وفطرته، وأنّ اسمه دين الإسلام الذي أوحى به الى جميع رسله وقاموا بتبليغه الى الناس، يتّجه الينا السؤال عن معنى نسخ شريعة بعض الرسل بشريعة رسول آخر، وهذا ما نحاول درسه في بحث النسخ في مسيرة الأنبياء الآتي بحوله تعالى.

النسخ في مسيرة الرسل أصحاب الشرائع

أ ـ وحدة شرايع آدم ونوح وابراهيم ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ب ـ مصطلحا النسخ والآية ومعناهما.

ج ـ تفسير آية ﴿ما ننسَخ من آية...﴾.

وآية ﴿وإذا بدّلنا آية مكانَ آية...﴾.

د ـ شريعة موسى كانت خاصّة لبني إسرائيل.

هـ ـ إنتهاء أمد شريعة موسى ببعثة خاتم الأنبياء.

في هذا البحث ندرس من مسيرة الرسل أصحاب الشرائع ما يوضّح لنا أمر النسخ في شرائعهم من خلال أخبارهم في القرآن الكريم ومصادر الدراسات الاسلامية، ومن ثّم لا نذكر أمر من بادت أممهم، مثل هود، وصالح وشعيب (عليهم السلام)، بل نخصّ بالذكر من بقيت شرائعهم من بعدهم، وهم كلٌّ من: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد (عليهم السلام)، حسب تسلسلهم الزمني كما يأتي بيانه: ٤٨٨٩

أ ـ وحدة شرايع آدم ونوح وإبراهيم ومحمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)

أوّلاً ـ أبو البشر آدم (عليه السلام):

جاء في الروايات ما موجزه: إنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:

«يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله، خلق الله فيه آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وأُهبِط فيه الى الأرض [٢] وأنزل معه بالحجر الأسود» [٣].

وفي روايات اخرى: «خلق الله الأنبياء والأئمة ـ الأوصياء ـ يوم الجمعة» [٤].

وفي الروايات الصحيحة:

إنّ جبرئيل أخذ آدم (عليه السلام) الى الحجّ، وعلّمه كيف يقضي مناسكه، وفي بعضها: إنّ غمامةً ظلّلت مكان البيت، فطاف جبرائيل بآدم (عليه السلام) حوله أسبوعاً، ثمّ أخذه الى الصّفا، والمروة، وسعى بينهما أسبوعاً، ثمّ أخذه الى عرفات في التاسع من ذي الحجّة، وتضرّع الى الله في عصره فتاب الله عليه، ثمّ ذهب به ليلة العاشر الى المشعر فناجى فيه ربّه الى الصباح، ثمّ ذهب به صباح العاشر الى منى، وحلق هناك رأسه علامةً لقبول توبته، ثمّ ذهب به ثانية الى مكّة، وطاف به حول البيت أسبوعاً وصلّى لله بعده، ثمّ ذهب الى الصفا، والمروة، وسعى بينهما أسبوعاً، وجمع الله بينه وبين زوجته حواء بعد قبول توبتهما، واصطفاه لرسالته [٥].

ثانياً: أبو الأنبياء نوح:

قال سبحانه في سورة نوح:

﴿إنّا أرسلنا نُوحاً الى قومِهِ أن أنذِر قومك... قالَ: يا قومِ إنّي نذيرٌ مُبينٌ أن اعبدُوا الله واتّقوهُ وأطيعون... وقالوا: لا تذَرُنَّ آلهتكُم ولا تذَرُن ودّاً ولا سُواعاً ولا يغُوثَ ويعُوقَ ونسراً...﴾ (الآية ١ ـ ٢٣).

ومما يتعلّق ببحثنا من أخبار نوح في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الشورى:

﴿شرعَ لكم من الدِّين ما وصّى بهِ نُوحاً والذي أوحينا إليكَ وما وصّينا بهِ ابراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرّقوا فيهِ...﴾ (الآية ١٣).

٤٨٩٠

شرح الكلمات

أ ـ ودّ، وسُواع، ويَغُوث، ويَعُوق، ونَسْر:

في البحار عن الإمام الصادق (عليه السلام) وورد ـ أيضاً ـ في كتاب الأصنام لابن الكلبي، وموجزاً في تفسير الآية بصحيح البخاري، واللفظ للأوّل موجزاً:

إنّ ودّاً وسُواعاً، ويَغوث، ويَعوق، ونسراً كانوا بررة مؤمنين يعبدون الله عزوجل فماتوا فضجَّ قومهم وشقَّ ذلك عليهم، فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم: أتخذ لكم أصناماً على صورهم فتنظرون اليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله، فأعدّ لهم أصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله عزّ وجلّ، وينظرون الى تلك الأصنام، فلّما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عزّ وجلّ حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم، فقالوا: إنّ آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء، فعبدوهم من دون الله عزّ وجلّ، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَذرُنَّ ودّاً ولا سُواعاً﴾ الآية[٦].

ب ـ وصّى الرجل غيره توصية بأن يفعل كذا: رغب اليه في أن يفعله لما يرى فيه خيراً وصلاحاً.

ووصّى الله بكذا: أمر به، وفرضه على عباده[٧].

تفسير الآيات بإيجاز

في الآيات الأولى أخبر الله سبحانه وتعالى أنّه أرسلَ نوحاً الى قومه أن أنذرهم فقال لهم انّي لكم نذير أبيّنُ لكم ما أرسلت به أن اتّقوا الله، واعبدوه، وأطيعوني في ما أبلّغكم من أوامر الله ونواهيه، فأبى قومه، وقالوا: لا تذروا عبادة أصنامكم..

وفي الآيات الأخيرة أخبر الله سبحانه وتعالى وقال:

شَرَع لكم من الدّين يا أمّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كتبه وشرعه لنوح ﴿والّذي أوحينا اليك﴾، أي وهو الذي أوحينا اليك يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو ما ﴿وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى﴾ ثمّ بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه﴾[٨].

ويدّل على ذلك قوله تعالى في سورة الصافّات:

﴿سلامٌ على نُوحٍ في العالمين * إنّا كذلكَ نَجزي المحسنين * إنّه من عبادنا المؤمنين * ثُمّ أغرقنا الآخرين * وإنّ مِن شيعته لإبراهيم * إذ جاءَ ربّه بِقلبٍ سليم﴾ (الآيات ٧٩ـ ٨٤).

شيعته:

شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره[٩]، والشيعة: الجماعة الثابتة لرئيس لهم[١٠] ويكون المعنى وإنّ من شيعة نوحٍ ابراهيم[١١].

وسنورد مزيد بيان له في ما يأتي إن شاء الله تعالى:

ثالثاً ـ خليل الله ابراهيم (عليه السلام):

ويتعلق ببحثنا من أخبار ابراهيم في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى:

أ ـ في سورة الحج:

﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكانَ البيتِ أن لا تُشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفينَ والقائمينَ والرُّكعِ السُّجود * وأذِّن في الناسِ بالحجِّ يأتُوكَ رِجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ ياتينَ مِن كُلِّ فجٍّ عميقٍ * ليشهدوا منافِعَ لهم ويذكرُوا اسمَ الله في أيّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهُم مِن بهيمةِ الأنعامِ﴾ (الآيات ٢٦ ـ ٢٨).

ب ـ في سورة البقرة:

﴿وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للنّاسِ وأمناً واتَّخذُوا مِن مقامِ ابراهيمَ مُصلّى وعهدنا الى ابراهيمَ واسماعيلَ أن طهِّرا بيتي للطّائفينَ والعاكفينَ والرُّكّع السُّجود *... وإذ يرفَعُ ابراهيمُ القواعِدَ من البيتِ واسماعيلُ ربّنا تقبّل مِنّا إنك أنت السميعُ العليمُ * ربَّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذُرّيتنا أُمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنّك أنتَ التوّاب الرحيم﴾ (الآيات ١٢٥ ـ ١٢٨).

ج ـ في سورة البقرة:

﴿وقالوا كُونوا هُوداً أو نَصارى تهتدُوا قُل بَل مِلّة ابراهيم حنيفاً وما كانَ من المشركين

٤٨٩٢

﴿ قولُوا آمنّا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل الى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقُوبَ والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النّبيُّونَ مِن ربِّهم لا نُفرِّقُ بينَ أحدً مِنهُم ونحن لهُ مسلِمُونَ﴾ (الآيتان ١٣٥ ـ ١٣٦).

د ـ في سورة آل عمران:

﴿ما كانَ ابراهيمُ يهوديّاً ولا نَصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مُسلِماً وما كان مِنَ المشركين﴾ (الآية ٦٧).

هـ ـ وفيها أيضاً:

﴿قُل صدقَ الله فاتّبِعُوا مِلّة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (الآية ٩٥).

و ـ في سورة الأنعام:

﴿قُل إنّني هداني ربّي الى صراطٍ مُستقيمٍ ديناً قيماً مِلّة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (الآية ١٦١).

ح ـ في سورة النحل:

﴿ثُمَّ أوحينا اليك أن اتّبِع ملّة ابراهيم حنيفاً وما كانَ من المشركين﴾ (الآية ١٢٣).

شرح الكلمات

أ ـ بوّأنا:

بوأتُ المنزل لفلان: هيّأتُ المنزل له.

وبوّأته فيه: مكنت له فيه، وبوأته منزلاً: انزلته فيه.

ب ـ أذّن بالشيء تأذيناً: أعلم به أو أكثر الاعلام ونادى به، والأذان اسم التّأذين كالسلام اسم التسليم.

ج ـ رجالاً:

رَجلَ يرجَلُ رجلاً: لم يكن له ما يركبه فهو رجل وراجل، والجمع رجال.

د ـ البهيمة: كلّ ذات أربع قوائم.

٤٨٩٤

هـ ـ ضامر:

جمل ضامر وناقة ضامر وضامرة: قليل اللحم لطيف الجسم.

و ـ فجّ:

الفجّ: الطريق الواسع بين جبلين، أو في جبل.

ز: مَثابة:

المثابة: الموضع الذي يرجع الناس اليه ﴿وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للنّاسِ﴾ أي مرجعاً يرجع اليه الحجّاج أفواجاً بعد أفواج، أو أنّ المثابة موضع ثواب يُثابون بحجّه واعتماره، وموضع أمنٍ لهم.

ح ـ مناسِكَنا:

النسك: العبادة، ونسك نسكاً: تطوّع لله بعبادة، وعمل يتقرب به الى الله مثل ذبح الهدي في الحج، ويقال للذبيحة: النسيكة، والمنسك: موضع العبادة، والمناسك: أعمال الحجّ وزمانها، وأماكنها في عرفات، والمشعر، ومنى، وما عداها.

ط ـ السّعي: المراد من السعي: العمل أو الإستعداد للعمل.

ي ـ مقام ابراهيم (عليه السلام):

صخرة على الأرض اتّجاه الكعبة عليها أثر قدمي ابراهيم (عليه السلام).

ك ـ حنيفاً:

الحَنف: ميل عن الضّلال الى الاستقامة.

والجنف: ميل عن الاستقامة الى الضّلال، والحنيف: هو المائل عن الضلالة الى الاستقامة، والحنيفيّة: شريعة ابراهيم (عليه السلام).

ل ـ قيَماً:

القيم والقيّم: الثابت المستقيم لا عِوج فيه.

م ـ ملّة:

المِلّة: الدّين حقّاً كان أو باطلاً، فإذا أضيف الى الله ورسله والمسلمين قصد به الدين الحقّ.

٤٨٩٤

تفسير الآيات بإيجاز

أُذكر أيّها النّبيُّ إذ مكّنّا لإبراهيم مكان البيت ليبنيه، وإذ كان ابراهيم واسماعيل يبنيان البيت ويدعوان ربّهما ويقولان: ربّنا تقبّل مِنّا واجعلنا مسلمين لك ومِن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسك الحجّ، فتقبّل الله سبحانه وتعالى دعاءَهما، ورأى ابراهيم في المنام أنّه يذبح ابنه اسماعيل (عليه السلام) في سبيل الله، وما يراه النبي في المنام نوع من أنواع الوحي، وكان إسماعيل (عليه السلام) قد بلغ سنّ العمل وعمل مع أبيه في بناء البيت، فأخبر إبراهيم (عليه السلام) ابنه اسماعيل (عليه السلام) بذلك، فقال: يا أبتِ افعل ما تُؤمَر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلمّا أسلما لأمر الله وألقى ابراهيم ابنه اسماعيل (عليه السلام) على جبينه ليضحّي به في سبيل الله ناداه الله: يا ابراهيم قد صدّقت الرُّؤيا، فإنّه بدأ بذبحه وهذا ما رآه في المنام ولم يرَ أنّه ذبحه، وفداه الله بكبش رآه أمامه، فضحّى به في منى.

أمر الله تعالى ابراهيم أن يُعلن الدعوة للحج وأخبر أنّ الناس سيأتون الى الحجّ مشاة وركباناً من كلِّ فجٍ عميق، وأنّ الله قد جعل البيت مكان أمن وتحصيل ثواب للناس، وأمر أن يتخذ الناس من مقام ابراهيم (عليه السلام) مصلّى.

وأخبر الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى عن ملّة ابراهيم (عليه السلام) ودينه وقال: إنّ ابراهيم كان حنيفاً مسلماً، ولم يكن من المشركين ولم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، كما يزعم ذلك بعض أهل الكتاب[١٢]، وأمرنا أن نتّبع ملّة ابراهيم (عليه السلام)، وخصّ رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الأمر، وأوصى اليه بقوله: قل إنني هداني ربّي الى صراط مستقيم، وهو الدين القيم، وملة ابراهيم الحنيف عن الشرك الى الإسلام، ومما اتّبع خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، من شريعة جَدّه إتيان مناسك الحجّ كما أمر به ابراهيم وكذلك فعلت أمّته، وأدّت مناسك الحجّ كما أدّاه خليل الرحمان ابراهيم (عليه السلام).

نتيجة البحث

كان يوم الجمعة مباركاً على آدم ومَن كان في عصره، ومباركاً لخاتم الأنبياء، وأُمّته الى أبد الدهر.

٤٨٩٥

وحجّ البيت آدمُ وابراهيم وخاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن تبعهم حتى اليوم وكذلك يفعلون الى أبد الدهر، وكذلك شرع لأمّة خاتم الأنبياء من الدين ما وصّى به نوحاً، وكان ابراهيم من شيعة نوح ومتابعيه في الشريعة، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمّته أن يتّبعوا ملّة ابراهيم ودينه القيّم.

ولا اختلاف بين شرائع هؤلاء الأنبياء من لدن آدم الى النبيّ الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما كانت الشريعة اللاحقة تجديداً للشريعة السابقة، وأحياناً إكمالاً لها. وقد مرّ بنا أنّ آدم (عليه السلام) حجّ، وأنّ ابراهيم جدّد بعض معالم الحجّ ببناء البيت، وأكمله النبيّ الخاتم بتعيين مواقيت الإحرام واتخاذ مقام ابراهيم (عليه السلام) مصلّى، وتبيين سائر معالم الحجّ.

أنزل الله من أحكام الإسلام الى آدم ما يحتاجه الإنسان الذي يعيش في الريف على الزرع والضرع[١٣].

ولّما كثر نسل بني آدم، وبنوا القرى في عصر نوح (عليه السلام)، وسكنوا المدن الكبيرة احتاجوا الى تشريع موسّع لانسان حضريٍّ له حاجات متعدِّدة في أمر التجارة والاجتماع، ومشاكل مختلفة لسكان المدن الكبيرة، فأنزل الله على نوح من أحكام الشرع الإسلامي ما يسدّ حاجاتهم مثل ما أنزل على خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) من تلك الأحكام.

وكانت الأمم تنحرف بعد أنبيائها عن التوحيد الى الشرك كما انتهى اليه أمر بني آدم في عصر نوح الى عبادة الأصنام، فيبدأ النبي عندئذ بدعوتهم إلى توحيد الله الخالق، وترك عبادة الأصنام كما كان شأن نوح، وإبراهيم، وسائر الأنبياء إلى خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذي كان يتجوّل في أسواق العرب ومضارب الحجيج يقول: قُولوا لا إله إلّا الله تُفلحوا.

وفي بعض الأُمم يدعّي طاغيتهم الربوبيّة كما كان شأن الطاغية نمرود الذي حاجّ إبرهيم في ربّه.

وشأن الطاغية فرعون الذي تجبّر وقال أنا ربّكم الأعلى، وفي مثل هذه الحال يبدأ النبي بالدعوة الى توحيد الربوبيّة ويقول إبراهيم (عليه السلام) ﴿ربّي الذّي يُحيي ويُميت﴾.

ويقول موسى (عليه السلام): ﴿ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقهُ ثمَّ هدى﴾ وجاء شرح قول

٤٨٩٦

موسى لفرعون في قوله سبحانه وتعالى في سورة الأعلى:

﴿سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى* الذي خلقَ فسوّى * والّذي قدَّرَ فهدى * والّذي أخرجَ المرعى * فَجعله غُثاءً أحوى﴾ (الآية ١ ـ ٥).

وقوله تعالى:

﴿أن ربُكم الله الذي خلقَ السَّموات والارض﴾ (الأعراف ٥٤).

إذاً فإنّ بعض الأمم تنحرف في أصل العقيدة بالتوحيد.

وينحرف بعض الأُمم عن الإسلام في أعمالها: كما كان شأن قوم لوط، وشعيب.

وإذ درسنا ما جاء في القرآن الكريم، وروايات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وما بقي من آثار الأنبياء، وما جاء من أخبارهم في مصادر الدراسات الإسلامية، أدركنا أنّ كل رسول لاحق كان يجدّد شريعة الله التي نزلت على من سبقه من الأنبياء بعد اندراسها، وتحريفها من قبل أمم الأنبياء أنفسهم، ولذلك أمرنا الله أن نقول:

﴿آمنا بالله وَما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقُوبَ والأسباط وَما أُتي مُوسى وعيسى وما أُوتي النَّبيون مِن ربِّهم لا نُفرقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمون﴾ (البقرة ١٣٦).

وإذا كان أمر شرايع الأنبياء (عليهم السلام) كما جاء ذكره في قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ما ننسخُ مِن آية أو نُنسها نأت بخيرٍ منها أو مِثلها ألم تعلَم أنَّ الله على كُل شيء قَدير﴾ (الآية ١٠٦)؟

وما معنى التبديل في قوله تعالى في سورة النحل:

﴿وإذا بدَّلنا آيةً مكان آية واللهُ أعلمُ بما يُنزلُ قالوا إنَّما أنتَ مُفترٍ بل أكثرهم لا يعلمُون﴾(الآية ١٠١)؟

ونقول في مقام الجواب: إنّ البحث هنا يدور حول أمرين:

حول مصطلحي النسخ والآية، ومعنى الآيتين مورد البحث كما سندرسهما في ما يأتي بإذنه تعالى وتقدّس:

٤٨٩٧

٢ ـ مصطلحا النسخ والآية ومعناهما

أ ـ النسخ في اللّغة: إزالة شيء بشيء يتعقّبه، يقال: نسخت الشمس الظلّ.

وفي المصطلح الإسلامي: نسخ أحكام في شريعةٍ بأحكام في شريعة أخرى، مثل نسخ بعض أحكام الشرايع السابقة بأحكامٍ في شريعة خاتم الأنبياء (ﷺ)، وكذلك نسخ حكم مؤقت بحكم ابدي في شريعة خاتم الانبياء (ﷺ)، مثل نسخ حكم توارث المتآخيين من المهاجرين والأنصار في المدينة قبل فتح مكّة بحكم توارث ذوي الأرحام بعد فتح مكّة[١٤].

ب ـ آية:

الآية مشتركة في المصطلح الاسلامي بين ثلاثة معان:

١ ـ معجزاتُ الأنبياء كما جاء في قوله سبحانه وتعالى في سورة النمل في خطابه لموسى بن عمران:

﴿وأدخل يدكَ في جيبكَ تخرُج بيضاءَ من غير سُوءٍ في تسع آياتٍ إلى فرعون وقَومه﴾ (الآية ١٢).

٢ ـ جملةٌ من ألفاظ قرآنية مشخّصة بالعدد كما جاء في سورة يوسف، والرعد، ويونس، والنمل ﴿الر * تلكَ آياتُ الكتاب...﴾.

٣ ـ فصل أو فصول من كتاب الله يبين حكماً من أحكام شريعة الله كما فصّلنا القول فيه في بحث المصطلحات من الجزء الأوّل من القرآن الكريم وروايات المدرستين.

وقد لوحظ في تسمية بعض القرآن (آية) مدلوله وهو الحكم المذكور في ذلك البعض من القرآن، وإنّ النسخ يتعلّق بذلك الحكم، وليس بلفظ القرآن الذي دلّ على ذلك الحكم.

ويشخّص المعنى في اللفظ المشترك بالقرينة الدالّة على المقصود في الكلام.

* * *

كان ذلك معنى الآية في المصطلح الاسلامي أما تفسير الآيتين فكالآتي:

٤٨٩٨

أوّلاً ـ آية النسخ:

وردت آية النسخ ضمن آيات (٤٠ ـ ١٥٢) من سورة البقرة، ونورد منها ما يخص البحث في ما يأتي:

﴿ يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نعمتي التي أنعمتُ عليكُم وأوفوا بعَهدي أُوفِ بعهدكُم وإياي فارهُبون * وآمنوا بما أنزلتُ مُصدقاً لما معكُم ولا تكُونوا أوَّل كافرٍ به ولا تشترُوا بآياتي ثمناً قليلٍ وإياي فاتَّقون * ولا تلبُسوا الحقَّ بالباطلِ وتكتُموا الحقَّ وأنتمُ تعلمُون * يا بني إسرائيلَ اذكُروا نعمتي الَّتي أنعمتُ عليكُم وأني فضَّلتكم على العالمين * واتَّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبل منها شفاعةٌ ولا يُؤاخذُ منها عدلٌ ولا هُم ينصرُون *... وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطُّور خُذوا ما آتيناكم بقُوة وإذكروا ما فِيه... *

ولَقد آتينا مُوسى الكِتاب وقفّينا مِن بعدهِ بالرسلِّ وآتينا عِيسى ابنَ مريمَ البيّناتِ وأيّدناهُ بروحِ القُدسِ أفكلَّما جاءكُم رسولٌ بِما لا تهوى أنفسكم استكبرتُم فَفريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلُون * وقالُوا قلوبنا غُلفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمنون * ولّما جاءهُم كتابٌ من عندِ الله مُصدّقٌ لما معهُم وكانوا مِن قبلُ يستفتحُونَ على الذين كفروا فلمّا جاءهُم ما عرفُوا كفرُوا بهِ فلعنةُ الله على الكافرينَ * بئسما اشترَوا بهِ أنفُسهم أن يكفُروا بما أنزلَ الله بغياً أن يُنزِّل الله من فضله على من يشاءُ من عبادهِ فباءُوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذابٌ مُهين * وإذا قيلَ لهُم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمنُ بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقُّ مُصدقاً لما معهم قُل فلمَ تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتُم مؤمنين * ولقد جاءكُم مُوسى بالبيِّنات ثُمَّ اتَّخذتم العِجل من بَعده وأنتم ظالمون *

... ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيِّناتٍ وما يكفرُ بها إلاّ الفاسقُون *... ولو أنَّهم آمنوا واتَّقوا لمثُوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون * ... ما يودُّ الذين كفرُوا مِن أهل الكتابِ ولا المشركين أن يُنزل عليكُم من خيرٍ من ربّكم والله يختصُّ برحمته من يشاءُ والله ذُو الفضلِ العظيم * ما ننسخ مِن آيةٍ أو نُنسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها ألم تعلم أنَّ الله على كل شيءٍ قدير *

... ودّ كثيرٌ من أهل الكتابِ لو يردُّونكم مِن بعد إيمانكُم كفاراً حسداً مِن عند أنفُسهم من بعدِ ما تبيَّن لهُم الحق *... وقالوا لن يدخُل الجنَّة إلا من كان هُوداً أو نصارى تِلك أمانيُّهم قُل هاتُوا برهانكُم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجههُ لله وهُو محسنٌ فلهُ أجرهُ عندَ ربِّهِ ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنُون *... ولن تَرضى عنكَ اليهودُ ولا النّصاري حتى تتَّبع ملَّتهم قُل إن هُدى الله هُو الهُدى ولئن اتَّبعت أهواءهُم بعدَ الذي جاءكَ من العلمِ مالك مِن الله من ولي ولا نصير *

... يا بَني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكُم وأنّي فضَّلتُكم على العالمين * واتَّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هُم يُنصرون﴾.

ثمّ يعينّ مورد النسخ بعد تمهيد مقدّمة أوردنا بعضها في ما سبق في ما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قيام ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) ببناء الكعبة وقال:

أ ـ ﴿وإذ يرفعُ ابرهيمُ القواعدَ منَ البيتِ وإسماعيل﴾.

ب ـ ﴿وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للنّاسِ وأمناً﴾.

ج ـ ﴿وعَهدنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتي للطّائفين والعاكفينَ والرُّكَّع السُّجود).

﴿قد نرى تقلُّب وجهكَ في السَّماء فلنُولِّينَّك قبلةً ترضاها فولّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ وحيثُ ما كُنتمُ فولُّوا وجُوهكم شطرهُ وإنَّ الَّذين أُوتوا الكتابَ ليعلمونَ أنَه الحقُّ مِن رَبهم وما الله بغافلٍ عما يعملون * ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتابَ بكُل آيةٍ ما تبعُوا قبلتكَ وما أنت بتابعٍ قبلتهُم *... الذينَ آتيناهمُ الكتابَ يعرفونهُ كما يعرفُون أبناءهُم وإن فريقاً منهُم ليكتمونَ الحقَّ وهُم يَعلمون﴾.

وأخبر الله قبله عن جدالهم مع المسلمين في تحويل القبلة وقال تعالى:

﴿سيقُول السُّفهاء من النَّاس ماولاهم عَن قبلتهُم التي كانُوا عليها قُل لله المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ *... وما جعَلنا القِبلة الَّتي كُنت عليها إلا

٤٩٩٠٩

لنَعلمَ من يتبَّعُ الرسول ممَّن ينقلبُ على عَقبيه وإن كانَت لكبيرةً إلاّ على الَّذين هدى الله وماكان الله ليُضيع إيمانكُم إن الله بالنّاس لرؤُوفٌ رحيم﴾.

ثانياً ـ آية التبديل:

جاءت آية التبديل ضمن مجموعة آيات سورة النحل[١٥] ونذكر منها ما يخصُّ البحث في ما يأتي:

قال سبحانه وتعالى:

﴿وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلمُ بما يُنزِّل قالوا أنّما أنت مُفتر بل أكثرُهم لا يعلمون * قُل نزّله روحُ القدُس من ربّكَ بالحقِّ ليُثبت الذين آمنوا وهُدى وبُشرى للمسلمين *...إنما يفتري الكذبَ الّذين لا يُؤمنون بآيات الله وأولئك هُم الكاذبون *... فكُلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً واشكُروا نعمةَ الله أن كنتم إياهُ تعبُدون * إنما حرَّم عليكم الميتةَّ والدَّم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فأنّ الله غفورٌ رحيم * ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكُم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذبَ إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يُفلحون * وعلى الذين هادأوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قَبل... *... ثُمّ أوحينا إليك أن اتبع ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * إنَّما جُعل السَّبتُ على الذين اختلفوا فيه...﴾ (الأيات ١٠١ ـ ١٢٤).

والذي قصّه الله على نبيِّه من قبل قوله تعالى:

أ ـ في سورة آل عمران:

﴿كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لِبني إسرائيلَ إلّا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسِه﴾ (الآية ٩٣).

ب ـ في سورة الأنعام:

﴿وَعلىَ الذَّين هادُوا حرَّمنا كُلَّ ذي ظفُرٍ ومِن البقَرِ والغنَمِ حرَّمنا عليهم شُحومهُما إلاّ ما حملت ظُهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بِعظمٍ ذلك جزينَاهم ببغيهِم وإنا لصادقون﴾ (الآية ١٤٦).

٤٩٠١

أوّلاً ـ شرح الكلمات:

أ ـ مُصدِّقاً لما معكم:

أي إنّ صفات القرآن وصفات الرسول يصدّق لما ورد في التوراة من الأخبار بـبعثة الرسول (ﷺ) وانزال القرآن عليه، مثل ما ورد في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنيه ط. رجارد واطس بلندن عام ١٨٣١م والآتي نصّه:

الاصلح الثالث والثلاثون

١ ـ فهذه البركة التي بها بارك موسى رجل الله بني اسرائيل قبل موته

٢ ـ * وقال جا الرب من سينا واشرق لنا من ساعير استعلن من جبل

٣ ـ فاران ومعه الوف الاطهار في يمينه سنة من نار * احب الشعوب جميع الاطهار بيده والذين يقتربون من رجليه يقبلون من تعليمه

٥ ـ موسي امرنا بسنة: ميراثا لجماعة يعقوب

وجاء هذا النص فى ط. رجارد واطس بلندن سنة ١٨٣٩م باللغة الفارسية كالآتي:

باب سى وسوم

١ ـ واينست دعاي خير كه موسى مرد خدا قبل از مردن بر بني اسرائيل خواند

٢ ـ وگفت كه خداوند از سيناي برآمد واز سعير نمودار گشت واز كوه فـاران نـور افشان شد وباده هزار مقربان ورود نمود واز دست راستش شريعتي آتشين براي ايشان رسيد

٣ ـ بلكه قبائل را دوست داشت وهمگي مقدماتش در قبضه تو هستند ومقربان پاي تو بوده تعليم ترا خواهند پذيرفت

٤ ـ موسى ما را بشريعتي امر كرد كه ميراث جماعت بني يعقوب باشد

وجاء في النص في طبعة[١٦] جامعة اكسفورد بلندن، دون تاريخ، ص ١٨٤:

٤٩٥٢

Chapter 33

And this is the blessing, where with moses the man of God blessed the children of Israel before his death.

2 and he said, The Lord came from Sinai, and rose up from seir unto them; he shined forth ' from mount paran. and ' he came with ten thousands of, saints: from his rigith hand went ' a fiery law for them.

3 yea, he loved the people; all his saints are nt the hand: and they' sat down at thy feet: every one shall' receive of thy words.

4 Moses commanded us a law,' even the inheritance of the congregation of lacob.

وترجمة النصين الى العربية كالآتي:

(وهذا دعاء الخير الذي تلاه موسى رَجلُ الله قبل موته على بني اسرائيل وقال: إنّ الله استعلى من سيناء، وظهر من ساعير ونشر النور من فاران، وجاء مع عشرة آلاف من المقرّبين، وجاءهم من يمينه شريعة ناريّة.

أحبّ القبائل، وجميع مقدّساته في يمينك ومقرّبون الى رجليك ويتقبلون تعاليمك.

موسى أمرنا بشريعة هي ميراث لجماعة بني يعقوب).

في هذا النص (وجاء مع عشرة آلاف من المقرّبين) مع تعيين عدد الألُوف وفي النص الأول (ومعه الوف الأطهار) مع عدم تعيين عدد الالوف لأنّ الذي ظهر من غار حراء بفاران ثمّ جاء الى أرض فاران مكّة ـ مع عشرة آلاف هو خاتم الأنبياء محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فابدروا الى تحريف هذ النص في عصرنا الحاضر كي يكتموا ما جاء فيه من بشارات ببعثة خاتم الأنبياء كما شرحنا ذلك في البحث التمهيدي الخامس من الجزء الثاني من كتاب (خمسون ومائة صحابي مختلق).

٤٩٠٣

نتيجة البحث في تفسير ﴿مصدِّقاً لَما معكُم﴾:

يتضح بجلاء أنّ هذا الإصحاح ينصّ على أنّ موسى بن عمران (عليه السلام) ذكر في وصيّته لبني اسرائيل قبل موته:

أنّ الله الربّ أنزل التوراة في جبل سينا والانجيل في جبل سعير والقرآن في جبل فاران ـ مكّة ـ ثمّ توسّع في ذكر خصوصيات الشريعة الثالثة وقال: وجاء ومعه عشرة آلاف من المقربين وهم عشرة آلاف من الجنود في فتح مكّة، وأنّ شريعة الثالث شريعة القتال، وأنّ أمّته يقبلون تعاليمه، وفي هذا التصريح تعريض بمواقف بني إسرائيل في انحرافاتهم وعبادتهم العجل ومجادلاتهم مع نبيّهم موسى وسائر أنبيائهم والتي جاء ذكرها في القرآن والتوراة.

وكذلك صرّح بأنّ شريعة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، نزلت لجميع القبائل بينما شريعة موسى بن عمران نزلت لجماعة يعقوب أي لبني إسرائيل.

ويطول بنا البحث اذا أردنا أن نستعرض جميع البشارات ببعثة خاتم الأنبياء والتي بقيت الى عصرنا الحاضر مع التحريف الذي أجروه عليها في ما بقي من الكتب السماوية بأيدينا اليوم، وكانت موجودة بأيدي أهل الكتاب في عصر خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك قال سبحانه بعيد هذا في الآية (١٤٦) منها:

﴿الذينَ آتيناهُم الكتابَ يعرِفونه كما يعرفونَ أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليَكتمون الحقّ وهُم يعلمون﴾.

وبناءً على ذلك فإنّ في بعثة خاتم الأنبياء بالقرآن وما يتّصف به هو وأمّته تصديق لما عند أهل الكتاب في التوراة والإنجيل، والحمدُ لله ربّ العالمين.

ب ـ لا تَلبِسوا الحقّ بالباطل:

أي لا تخلطوا الحقّ بالباطل لتخفوا الحقّ، أو لا تستروا الحقّ بالباطل لتجعلوه مشكوكاً.

ج ـ عدل: عدل: أي فدية.

٤٩٠٤

د ـ قَفينا:

قفّى من بعد الشيء بالآخر: أتى بالآخر بعد الأول أو جعله يتبعه.

هـ ـ غُلفٌ:

غلّف الشيء: جعل له غلافاً، وغلف جمع الأغلف وهو الموضوع في الغلاف.

و ـ يستَفتِحُون:

أي يطلبون النصر على خصومهم في القتال بذكر اسمه ويستشفعون به الى الله لينصرهم[١٧].

ز ـ نُنسها:

لابدّ أن تكون (ننسها) مخفّفة من (نَنسِئُها)، ونسأ الشيء أو الأمر وأنساه أخّره، ويكون المعنى ما ننسخ من آية ـ من أحكام ـ أو نُؤجِّلها نأت بخير منها أو مثلها، كما سيأتي بيانها وبين الحكمة فيها في ما يأتي إن شاء الله تعالى.

ولا يصحّ أن تكون من (ننسيها)، ويكون المعنى لا ننسي الناس قراءة (آية) من القرآن كما فسّروها[١٨]، وذلك:

أوّلاً: لقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿سنُقرِئُك فلا تَنسى﴾، إذاً فقد ضمن الله حفظ القرآن من النسيان.

وثانياً: لعدم وجود مصلحة لإنساء الله الناس قراءة آية أو آيات أنزلها ليقرأها الناس.

ح ـ هادُوا وهُوداً:

هادَ: دانَ باليهودية فهو هائد وجمعه هوداً، مثل عائذ وعوذاً، ونازل ونزلاً.

ط ـ فضّلَكُم على العالَمين:

أي فضّلهم في عصرهم على العالمين من قوم فرعون بمصر والعمالقة وأمثالهم في الشام.

ي ـ شَطر: شطر الشيء: من معانيه جهة الشيء، وهو المقصود هنا.

ك ـ ما كانَ الله ليُضيعَ إيمانَكُم:

أي ما كان الله ليضيع صلاتكم التي صليتموها مستقبلين بيت المقدس قبل تحويل القبلة الى الكعبة.

٤٩٠٥

ل ـ بدّلنا:

بدّل الشيء بالشيء وبدّل شيئاً مكانَ شيء آخر: جعل الشيء الثاني مكان الشيء الأوّل.

والفرق بين العوض والبدل: أنّ العوض ما تعقّب به الشيء على جهة المثامنة، تقول: هذا الدرهم عوض من خاتمك، والبدل ما يقام مقامه ويوقع موقعه على جهة التعاقب دون المثامنة[١٩].

م ـ رُوحُ القُدس:

هو الملك الّذي أنزل الله القرآن وتفسيره وأحكام الاسلام معه الى الرسول.

ن ـ ذِي ظُفر:

الظفر في اللغة ظفر الانسان وغيره، والمقصود هنا والله اعلم كلّ حيوان ليس بمنفرج الأصابع كالابل والنعام والأوز والبطّ.

س ـ الحَوايا:

الحوايا: الأمعاء والمباعر.

ع ـ ما اختلطَ بعَظم:

اختلط الشيء بالشيء: امتزج، والمقصود هنا شحم الجنب والألية لأنه على العصعص وهو عظم.

ثانياً: تفسير الآيات:

أ ـ آية التبديل التي جاءت ضمن آيات سورة النحل المكّية:

في هذه الآيات قال الله تعالى:

وإذا بدّلنا آية أي بعض أحكام من شرع سابق بأحكام أخرى نزلت في القرآن قالوا للرسول (ﷺ): إنّما أنت مفترٍ.

لا. ليس الامر كذلك: بل أكثرهم جهّال لا يعلمون!

يا رسول الله (ﷺ)! قل: نزّل الأحكام في القرآن الملك من عند ربّك بالحقّ كي

يثبّت المؤمنين على الإيمان وليكون هدىً وبشرىً للمسلمين، ولست أنت المفتري، وإنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ـ أي المشركون أنفسهم ـ وأولئك هم الكاذبون.

ثمّ شرح الله سبحانه بعد هذا مورد النزاع وقال: كُلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّباً مثل لحم الجمل وبعض شحوم الحيوان ونظائرهما مما حرّمها على بني اسرائيل، فإنّ الله لم يحرّمها عليكم وإنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلّ به لغير الله، أي ما هتف عند ذبحه باسم غير الله مثل اللات والعزى ونظائرها، إلّا لمن اضطرّ الى اكلها، هذه مما حرمت عليكم ولا تصفوا الأشياء بألسنتكم بأنّ هذا حلال وذاك حرام، كما أخبر الله عن قول المشركين في الآيات ١٣٨ ـ ١٤٠ من سورة الأنعام، كان ذلكم شأن المشركين، أما اليهود فقد حرّم الله عليهم خاصّة ما قصّه على الرسول قبل هذه السورة ـ أيضاً ـ في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام، وكان ذلك التحريم لليهود.

أمّا أنت أيّها الرسول فقد أوحينا اليك أن اتّبع في أمر الحلال والحرام ملّة ابراهيم، وكان من جملة ما في ملّة ابراهيم اتخاذ يوم الجمعة يوم استراحة في الاسبوع، أمّا السبت فقد جعل يومه عطلة على بني اسرائيل خاصّة تحرّم عليهم العمل فيه، كما ورد ذكره في الآية ١٦٣ من سورة الاعراف.

وبناءً على ما أوردناه فإنّ معنى تبديل آية هنا إنّما هو تبديل بعض أحكام جاءت في توراة موسى بن عمران (عليه السلام)، بأحكام نزلت في القرآن على خاتم الرسل (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعودة الأمر الى ما كان عليه في شريعة ابراهيم الخليل (عليه السلام).

ويؤكّد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةً قال الذين كفروا إنّما أنت مُفترٍ... قُل نزّلَهُ روحُ القُدس﴾.

وإعادة الضمير في (نزّله) الى معنى (آية) وهو الحكم، ولو كان الجدال حول تبديل الآية التي هي جزء من السورة لكان ينبغي ان يقول سبحانه: (قل نزلها روح القدس) ويعيد الضمير مؤنثاً.

٤٩٠٧

ب ـ الآيات التي وردت في ضمنها آية النسخ في سورة البقرة المدنية:

في هذه الآيات قال الله سبحانه:

يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم وأوفوا بعهده حين أنزل لكم التوراة وقال لكم: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه، وفيه البشارة ببعثة خاتم الأنبياء، يوف الله بعهده اليكم، فيغدق نعمه عليكم في الدنيا والآخرة، وآمنوا بما أنزل على خاتم الأنبياء وهو يصدّق لما معكم من كتب الله، ولا تكتموا الحقّ ولا تَلبسوا الحقّ بالباطل وأنتم تعلمون. ولقد آتى الله موسى الكتاب وقفّى بعده بالرسل ومنهم عيسى بن مريم الذي أيّدَهُ بالأدلّة الواضحة وأيّده بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بأحكام لا تهواها أنفسكم استكبرتم وكذّبتم فريقاً منهم وفريقاً تقتلونهم، وقلتم قلوبنا مغلفة عن دركها، وأخيراً لّما جاءكم القرآن من عند الله وهو يصدّق ما عندكم من الأخبار كفرتم به، في حين أنّكم كنتم قبل ذلك تستشفعون في طلب الفتح على الكفّار باسمه، وعندما جاءكم النبيّ وعرفتموه كفرتم به وبما أنزل الله معه من الوحي، بئسما اشتريتم لأنفسكم ان تكفروا بما أنزل الله، لأنّه أنزله على ذريّة اسماعيل دون ذرية يعقوب فبوءوا بغضب من الله وللكافرين عذاب مهين.

وإذا قيل لليهود آمنوا بما أنزل الله على خاتم أنبيائه قالوا: نُؤمن بما أُنزل علينا معشر بني اسرائيل، ونكفر بما أُنزل على غيرنا، وهو حقّ يصدِّق ما معهم في كتب الأنبياء من الاخبار ببعثته.

قل لهم يا رسول الله: ان كنتم تزعمون أنّكم مؤمنين بالله فلم قتلتم أنبياء الله الذين جاءوكم قبل هذا!؟ كيف تقولون إنّكم تؤمنون بما أنزل اليكم، ولقد جاءكم موسى بالآيات البيِّنات فعبدتم العجل بدل الإيمان بالله، وكما أنزل الله على موسى آيات بيّنات أنزل ـ أيضاً ـ آيات بيّنات على خاتم أنبيائه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا يكفر بها الا الفاسقون.

ولو أنّ اليهود آمنوا واتّقوا الله لأثابهم الله، ولكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بمكة لا يحبون أن ينزل عليكم ايها المسلمون خبر وكتاب من ربّكم في حين أنّ الله يختصّ برحمته من يشاء.

وما ننسخ الله من آية أو ننسها يأتِ بخير منها أو بمثلها، أي ما ينسخ الله مِن أحكام أو

٤٩٠٨

يؤجِّلها يأتِ بخير منها أو بمثلها، انّ الله على كل شيء قدير.

أحبّ كثير من أهل الكتاب أن يردّوكم عن إيمانكم بخاتم الأنبياء الى الكفر حسداً أن ينزل الوحي على غير بني إسرائيل، بعد أن تبيّن لهم أنّه الحق وقالوا لكم لن يدخل الجنّة إلّا من كان من اليهود أو النصارى، أي إنّكم بإسلامكم لن تدخلوا الجنّة، قل هاتوا برهانكم. بلى من أسلم وعمل الصالحات فله أجره عند ربّه، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتّبعَ ملّتهم.

ثمّ خاطب اليهود وقال لهم: يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين في عصركم واتّقوا يوم القيامة.

ثمّ ذكر موضع النزاع وسبب الخصومة وكيف وقعا بين الرسول واليهود، وقال سبحانه: نرى تقلّب وجهك نحو السماء انتظاراً لتحويل القبلة من بيت المقدس فلنولينك قبلة ترضاها اينما كنت انت والمسلمين ولّ وجهك نحو المسجد الحرام، وإنّ الذين أوتوا الكتاب اليهود منهم الذين يخاصمونك والنصارى لَيَعلمون أنّ تحويل القبلة الى الكعبة حقّ من ربّهم، وإنّك مهما تأتهم بآية لا يقبلون قولك ولا يتّبعون قبلتك. وسيقول السفهاء ما ولاهم عن بيت المقدس قبلتهم السابقة. قل إنّ الأمر لله والمشرق والمغرب له يهدي من يشاء الى صراط مستقيم، وكان جعل القبلة بيت المقدس وتحويلها الى الكعبة لامتحان الناس في مكّة حيث جعل قبلتهم الى بيت المقدس دون الكعبة، وفي المدينة ـ أيضاً ـ تحويل القبلة الى الكعبة امتحاناً لليهود، في أنّهم هل يتركون العصبية الاسرائيلية ويتركون استقبال بيت المقدس ويستقبلون الكعبة بعد أن عرفوا أنّه الحقّ من ربهم. إمتحاناً لهؤلاء وأولئك ليعلم من يتبع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن ينقلب على عقبيه.

أمّا صلاتهم التي استقبلوا بها بيت المقدس قبل ذلك فلا تضيع عند الله.

وهكذا يتبيّن أنّ المقصود من (آية) في ذكر مجادلة قريش في مكة عند تبديلها بآية أُخرى: تبديل الله حكماً بآخر، كما جاء تفصيل ذلك الجدال قبل هذه السورة في سورة الأنعام؛ (٤٩٠٩)

وأيضاً تبيّن أنّ المقصود من نسخ آية أو تأجيلها في خبر اليهود في المدينة: نسخ حكم

في شريعته (عليه السلام) أو تأجيل حكم شريعة لحكمة يعلمها الله.

إنّ الراغب قد أصاب في تفسيره آية: (وكلّ جملة دالّة على حكم آية، سورة كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورة) أي باعتبار معنى الآية في السورة.

كان ذلكم المقصود من تبديل آية مكان آية أخرى ونسخ آية وإنسائها في الآيتين الكريمتين، وسندرس في ما يأتي شأن النسخ وحكمته في شريعة موسى بن عمران (عليه السلام) بإذنه تعالى.

٣ـ شريعة موسى كانت تخصّ بني إسرائيل

إنّ شريعة موسى التي جاءت في التوراة كانت تخصّ بني اسرائيل كما جاء في العدد الرابع من الإصحاح الثالث والثلاثين في سفر التثنية ما نصّه: (موسى أمرنا بسنّة ميراثا لجماعة يعقوب).

أي أنّ موسى أمرنا بشريعة تخصّ جماعة يعقوب وهم بنو اسرائيل، وكذلك مرّ في الآيات التي درسناها آنفاً بيان ذلك. وفي ما يأتي ندرس أمر النسخ بتفصيل أوفى باذنه تعالى.

حقيقة النسخ في شريعة موسى (عليه السلام) :

نبدأ بذكر أخبار بني إسرائيل في القرآن حسب التسلسل الزمني ثم ندرس أمر النسخ في شريعتهم:

أولاً ـ تذكير بني اسرائيل بما أنعم الله عليهم:

أ ـ في سورة البقرة:

﴿يا بَني اسرائيلَ اذكرُوا نعمتي التي أنعمتُ عليكُم وأنّي فضّلتُكم على العالَمين * ... وإذ نجيناكُم من آل فِرعَون يسُومونَكم سوءَ العذابِ يُذبّحون أبناءكَم ويستحيونَ نِساءكم وفي ذلِكم بلاءٌ من ربّكم عظيم * وإذ فرقنا بِكم البحر فأنجيناكُم وأغرقنا آل فرعونَ وأنتم

٤٩١٠

تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثُمَّ اتّخذتم العِجل من بعده وأنتم ظـالمون﴾ (الآيات ٤٧و٤٩ و ٥٠و٥١).

ب ـ في سورة الاعراف:

﴿وجاوزنا ببني اسرائيلَ البحر فأتوا على قومٍ يعكِفُون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاًكما لهم آلهةٌ قال إنّكم قومٌ تجهلون﴾ (الآية ١٣٨).

ج ـ في سورة طه:

﴿وأضلّهُم السّامريّ *... فكذلك ألقى السّامريّ * فأخرج لهم عِجلاً جسداً له خُوارٌ فقالوا هذا إلهُكم وإله موسى...﴾.

﴿ولقد قال لهم هارونُ مِن قبلُ يا قومِ إنّما فُتنتُم به وإنّ ربّكُـمُ الرّحـمنُ فـاتّبعوني وأطيعُوا أمري * قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين حتّى يرجِعَ إلينا موسى﴾ (الآيات ٨٥ـ ٩١).

د ـ في سورة البقرة:

﴿وإذ قال موسى لِقومهِ يا قومِ إنّكُم ظلمتُم أنفسكم باتّخاذِكُـمُ العِـجل فتُوبوا الى بارئِكُم فاقتلوا أنفسَكم ذلكم خيرٌ لكُم عند بارِئكُم فتابَ عليكُم إنّه هو التّوّاب الرحيم﴾ (الآية ٥٤).

ثانياً ـ التّوراةُ وبعضَ أحكامها:

أ ـ في سورة البقرة:

﴿وإذ أخذنا ميثاقكُم ورفعنا فوقكُمُ الطّور خذُوا ما آتيناكُم بِقُوّةٍ واذكروا ما فيه لعلكَم تتقونَ﴾ (الآية ٦٣).

وقريب منه في الآية ٩٣ منها والآية ١٧١ من سورة الأعراف.

ب ـ في سورة الإسراء:

﴿وآتينا موسى الكتابَ وجعلناهُ هُدىً لبني اسرائيل...﴾ (الآية ٢).

ج ـ في سورة آل عمران:

﴿كُلُّ الطّعامِ كانَ حِلاً لبني اسرائيل إلّا ما حرّمَ اسرائيلُ على نفسهِ من قبلِ أن تُنزّلَ التوراة...﴾ (الآية ٩٣).

د ـ في سورة الأنعام:

﴿وعلى الذين هادُوا حرمنا كُلّ ذي ظُفر ومِن البقرِ والغنمِ حرّمنا عليهم شُحومهُما إلّا ما حملت ظهوُرُهما أو الحَوايا أو ما اختلطَ بعظمٍ ذلك جزيناهم بِبغيهم وإنّا لصادقون﴾ (الآية ١٤٦).

هـ ـ في سورة النحل:

﴿وعلى الّذينَ هادُوا حرّمنا ما قصَصنا عليك مِن قبلُ وما ظلمناهُم ولكن كانُوا أنفسَهم يظلِمون﴾ (الآية ١١٨).

و ـ في سورة النِّساء:

﴿يسألُكَ أهلُ الكِتابِ أن تُنزّل عليهم كتاباً مِن السّماءِ فقد سألوا موسى أكبرَ مِن ذلك فقالوا أرِنا الله جهرَة... فعفونا عن ذلك... ورفعنا فوقَهم الطُّور بميثاقِهم... وقُلنا لهم لا تَعدوا في السّبتِ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبِما نقضِهم ميثاقَهم وكُفرهم بآيات الله وقتلِهم الأنبياء... وبكُفرهم وقولهم على مريمَ بهتاناً عظيماً * فبِظلم من الذين هادُوا حرّمنا عليهم طيِّباتٍ أحلّت لهم وبِصدِّهم عن سبيلِ الله كثيراً * وأخذِهم الرِّبا وقد نُهوا عنه وأكلِهم أموال النّاسِ بالباطل﴾ (الآيات ١٥٣ ـ ١٦١).

ز ـ في سورة) الاعراف:

﴿وسئَلهم عن القريةِ التي كانت حاضِرة البحرِ إذ يعدُون في السّبتِ إذ تأتيهم حيتانُهم يومَ سبتِهم شُرّعاً ويوم لا يسبِتُون لا تأتيهم كذلكَ نَبلوهم بِما كانوا يَفسقون﴾ (الآية ١٦٣).

والبقرة (٦٥) والنساء (٤٧ و١٥٤).

ح ـ وفي سورة النحل:

﴿إنّما جُعِل السّبتُ على الّذينَ اختلفوا فيه...﴾ (الآية ١٢٤).

٤٩١٢

ثالثاً ـ نعم الله على بني اسرائيل وطغيانهم وتمردّهم:

أ ـ في سورة الاعراف:

﴿وقطّعناهُم اثنتي عَشرَة أسباطاً أُمماً وأوحينا الى موسى إذ استسقاهُ قومهُ أن اضرب بعصاكَ الحَجر فانبجست مِنه اثنتا عشرَة عيناً قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشربَهُم وظلّلنا عليهم الغَمام وأنزلنا عليهم المَنّ والسّلوى كُلوا مِن طيِّباتِ ما رزقناكُم وما ظلَمونا ولكن كانُوا أنفُسَهم يَظلِمون * وإذ قيل لهم اسكُنُوا هذه القريةَ وكلُوا منها حيثُ شِئتم وقولوا حِطّةٌ وادخُلوا البابَ سُجّداً نغفِر لكم خَطيئاتِكُم وسَنزيدُ المحسنين * فبدّلَ الّذينَ ظَلموا مِنهم قولاً غير الّذي قيلَ لهم فأرسلنا عليهم رِجزاً مِنَ الّسماءِ بما كانُوا يظلِمون﴾ (الآيات ١٦٠ـ ١٦٢).

ب ـ في سورة المائدة:

﴿وإذ قال موسى لِقومه يا قومِ اذكروا نِعمة الله عليكم إذ جعلَ فيكم أنبياءَ وجعلكم ملُوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين * يا قومِ ادخُلوا الأرضَ المقدّسة الّتي كتب الله لكُم ولا ترتَدُّوا على أدبارِكُم فتَنقلِبُوا خاسرين * قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارينَ وإنّا لن ندخلَها حتى يخرُجوا منها فإن يخرُجوا منها فإنّا داخِلُون * قال رجلانِ مِن الذينَ يخافُونَ أنعمَ الله عليهما ادخُلوا عليهمُ البابَ فإذا دخلتُموهُ فإنّكُم غالِبُون وعلى الله فتوكّلُوا إن كُنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتِلا إنّا هاهُنا قاعِدون * قال ربِّ إنّي لا أملِكُ إلّا نفسي وأخي فافرُق بيننا وبينَ القومِ الفاسقين * قال فإنّها مُحرَّمةٌ عليهم أربعين سَنةً يتيهونَ في الأرضِ فلا تأس على القومِ الفاسقين﴾ (الآيات ٢٠ ـ ٢٦).

شرح الكلمات

أ ـ اسرائيل:

يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم لقبه اسرائيل وبنو اسرائيل ذريته من أبنائه الإثني عشر.

ب ـ يَسومونكم:

٩١٤

سام الإنسان يسومه ذُلاً أو خَسفاً أو هواناً: أولاه إيّاه وأراده عليه.

ج ـ يَستحيون:

استحيا الأسير: تركه حيّاً فلم يقتله.

د ـ يَعكِفون:

عكف في المسجد عكوفاً: أقام للعبادة، وعكف عليه يعبده: أقبل عليه يعظّمه وواظب على عبادته لا يصرف وجهه عنه.

هـ ـ خُوار:

الخُوار: صوت البقر والغنم.

و ـ يَبرح:

برح المكان براحاً: فارقه.

ز ـ فتنتم:

الفِتنةُ من الله لعباده امتحان، ومن ابليس والناس للناس: إضلال وايقاع في المكروه، فمن ابليس للناس كما قال الله تعالى: ﴿**يا بَني آدم لا يفتنكم الشيطان**﴾ (الاعراف / ٢٧. ومن الناس للناس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ البروج / ١٠.

ح ـ بارئ:

ي ـ أسباطاً:

الأسباط هنا بمعنى القبيلة.

ك ـ فانبَجَست:

بَجسَ وانبَجسَ وتَبجّسَ: انفجر وتفجّر.

ل ـ المنّ والسّلوى:

١ ـ المنّ: ندى يُشبه العسل جامد ينزل من السماء وقيل غير ذلك.

٢ ـ السّلوى: واحدته سَلَواة: طائر يشبه السّماني، أو هو السّماني، والسماني: طائر صغير من الدجاجيات جسمه ممتلئ يستوطن حوض البحر الأبيض ويهاجر شتاءً الى

٤٩١٤

مصر والسودان[٢٠].

م ـ حِطّة:

حطَّ الله وزره: اي وضع الله عن ظهره ما يحمله من آثام، وحِطّة مثل مغفرة: أي حطّ عنّا ذنوبنا.

ن ـ رَفعنا:

رفع الشيء فوق الشيء: اعلاه عليه.

س ـ ميثاقكم:

الميثاق:

العهد وما يشد به العهد ويوثق كأنّه عهد على الالتزام بالعهد.

ع ـ الرِّجز:

العذاب، ورجز الشيطان وساوسه.

ف ـ يَتيهون:

تاهَ تَيهاً في الأرض: ضلّ الطريق وتحيّر.

ص ـ لا تَأس:

اسى وآسى عليه أسىً: حزن عليه.

ق ـ تَعدو:

عَدا عدواً وعُدُّواً وعُدواناً وعداءً واعتدى: ظلم وتجاوز الحقّ.

ر ـ ميثاقاً غَليظاً:

وَثِق به ثِقةً وموثِقاً: ائتمنه وسكن اليه، والموثق: الائتمان والعهد المؤكّد.

ش ـ الحَوايا:

الحوايا: الأمعاء، واحدتها: حويّة.

ت ـ شُرّعاً:

شَرعَ شرعاً: دنا وأشرف وظهر فهو شارع وهم شُرّع.

ث ـ جَعل لهم:

٤٩١٥

جَعل: شرّع وحكم وقرّر.

تفسير الآيات

خاطب الله بني اسرائيل وقال لهم: أُذكروا نعمتي عليكم اذ جعلت فيكم الأنبياء والملوك وآتيتكم النعم كالمنّ والسلوى ما لم يؤت أحدٌ من العالمين.

وإنه سبحانه نجّاهم من ذلّ عبودية فرعون وقتله ابناءهم واستحيائه نساءهم وأغرَق فرعون وجنودَه وجاوز بهم البحر فأتوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا صنماً كصنمهم نعبده، وإنهم عبدوا العجل عندما ذهب موسى لتسلُّم التوراة من الله في الطور، وأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي قدّرها الله يوم ذاك لهم، فقالوا: يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين ـ العمالقة ـ وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. قال يشوع ـ اليسع ـ ورجل آخر منهم: ادخلوا المدينة فإنّكم ستغلبونهم، فأبوا ذلك وقالوا: يا موسى اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا العمالقة، إنّا هاهنا قاعدون. قال موسى: ربّ إنّي لا أملِكُ إلّا نفسي وأخي هارون ففرّق بيني وبين القوم الفاسقين، قال الله سبحانه: فإنّ الأرض المقدسة محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في هذه المدّة في صحراء سيناء فلا تحزن على الفاسقين.

وأخبر عنهم سبحانه في سورة الاعراف، وقال تعالى: وقسّمنا بني اسرائيل اثنتي عشرة قبيلة وأوحينا الى موسى عندما استسقى قومه أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ قبيلة من بني اسرائيل عين، وظلّل عليهم الغمام وقاية لحرّ الشمس عنهم وأطعمهم حلاوة كالعسل ولحم الطير، وقيل لهم بعد طول السفر اسكنوا مدينة كانت أمامهم، وكلوا مما فيها من رزق، وادخلوا باب المدينة شاكرين لله ساجدين له، وقولوا حطة أي ربّنا اغفر لنا خطايانا، فبدّل الظالمون قولاً غير ما أمروا بقوله، وقالوا: حنطة، أي نطلب الحنطة[٢١]، فأنزل الله عليهم العذاب من السماء بسبب عملهم.

وأخبر الله سبحانه عنهم في سورة النِّساء، وقال تعالى: يسألك ـ يا رسول الله ـ أهلُ الكتاب أي اليهود أن تُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، وقد سبق لهم أن سألوا موسى أكبر من ذلك حين قالوا له: أرنا الله جهاراً لنُبصِرَهُ بعيوننا، فعفونا عن ذنبهم، ورفعنا فوقهم الطور،

٤٩١٦

وإذ أخذنا الميثاق على العمل بعهدكم في العمل بما جاء في التوراة.

كان أحبّ الطعام والشراب الى اسرائيل ألبان الإبل ولحومها وإنّه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرّم على نفسه أحبّ الطعام والشراب اليه لحوم الإبل وألبانها شكراً لله.

وحرّم على نفسه زائدتي الكبد والكليتين والشحم إلّا ما كان على الظهر فانّ ذلك كان يقرّب للقربان فتأكله النار[٢٢].

وكان ممّا عاهدوا الله عليه في العقائد: الإيمان بمن بشّر ببعثته موسى بن عمران (عليهما السلام) من بعثة عيسى (عليه السلام) وبعده بعثة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) كما مرّ بنا في ما نقلناه عن سفر التثنية.

وفي الأحكام عاهدوا أن لا يتعدّوا في يوم السبت ولا يعملوا فيه وأخذ الله منهم في ذلك ميثاقاً شديداً أكيداً.

وبسبب نقضهم ـ أي بني اسرائيل ـ ميثاقهم مع ربّهم وكفرهم بآيات الله وقولهم في مريم بهتاناً عظيماً ورميهم الطاهرة مريم بهتاناً عظيماً وبظلمهم حرّمنا عليهم ـ تأديباً لهم ـ طيّبات أُحلّت لهم كما أنّهم بظلمهم وعبادتهم العجل أُمروا بقتل أنفسهم ـ أي بقتل من لم يؤمن بالعجل من عبد العجل منهم ـ وبمنعهم عن الإيمان بالله وأخذهم الرِّبا في المعاملات وأكلهم الرِّبا مع أنّهم مُنِعُوا عن الرِّبا، حُرِّمت طيِّبات لهم.

وممّا خالفوا ما واثقوا به ربّهم صيدهم يوم السبت الحيتان من البحر؛ لأنّها كانت تدنو منهم يوم السبت وتظهر لهم ولا تأتي الحيتان غير يوم السبت كذلك. وكان ذلك امتحاناً لهم خاصّة، وانّما جعل لهم السبت أي شرّع العطلة يوم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم بنو اسرائيل.

وقال تعالى في سورة النِّساء:

يسألك اليهود من أهلِ الكتاب أن تُنَزِّل عليهم كتاباً مِن السمّاء، وقد سألوا نبيّهم موسى أكبر من ذلك وقالوا: أرِنا الله جهاراً لِنُبصرَهُ بعيوننا... بعَفونا عن ذلك ورفعنا فوقهم الطّور، وأخذنا منهم العهود والمواثيق أن يعملوا بما جاء به موسى بن عمران، وكان منه الإيمان بأنبياءِ الله وخاصة عيسى بن مريم (عليه السلام) ومحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وافتَروا على

مريم (عليها السلام)، والأحكام التي فيها، فكفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء، وصدّوا عن سبيله وأخذوا الرّبا وأكلوا أموال النّاس، وبسبب ظلمهم حرّمنَا عليهم طيّباتٍ كانت قبل ذلك حلالاً عليهم، وممّا حرّم الله عليهم صيد الأسماكِ يومَ السّبت لأهلِ القرية التي كانت حيتان البحر تدنو اليهم يوم السبت.

حصيلة البحث

فضّل الله بني اسرائيل على معاصريهم من أقباط مصر وعمالقة الشام وسائر الأمم، وبعث الله فيهم النبيّين كموسى وهارون وعيسى وأوصيائهم، وفي مقدّمتها التوراة، وأخذ منهم العهود والمواثيق ان يعملوا بما أنزل في كتبه وأنعم عليهم بالمنّ والسلوى وإسالة الماء من الحجر وغيرها، وفي مقابل كلّ تلك النّعم جَحدُوا بآيات الله وعبدوا العجل وأخذوا الرّبا وأكلوا أموال الناس وعملوا أموراً أمثالها من أنواع التّمرّد على الله، فكانوا بحاجة لتربية نفوسهم الى ما فرض الله عليهم من قتل نفوسهم وترك العمل للدنيا يوم السبت، وقد اختلفوا في ترك العمل يوم السبت كفعل أهل القرية التي كانت على ساحل البحر[٢٣]، وحرّم عليهم ما حرّم اسرائيل على نفسه من أكل الشحم ولحم الجمل وأمثالهما ترويضاً لنفوسهم، وبالإضافة الى ذلك كان بنو اسرائيل بحاجة بحاجة الى تماسك قبلي بين أسباطها لمقابلة الأمم الطاغية المحيطة بهم من عمالقة واقباط، فشرّع الله لهم استقبال خيمة الإجتماع للعبادة، قبل بناء سليمان المسجد المسمّى بهيكل سليمان، واجراء الطقوس الدينية بإشراف أبناء هارون، وكما أرسل الله اليهم عيسى بن مريم وأمّه مريم من سلالة داودَ من سُبط يهودا من بني اسرائيل؛ أحَلَّ لهم بعض ما حرّم عليهم كما قال سبحانه على لسان عيسى (عليه السلام) في سورة آل عمران:

﴿ورسولاً الى بني اسرائيلَ أنّي قد جِئتُكُم بآيةٍ من ربِّكُم... ومُصدِّقاً لِما بين يَديَّ من التّوراةِ ولأُحِلَّ لكم بعض الّذي حُرِّم عليكم﴾ (الآية ٤٩ ـ ٥٠).

وبناءً على ما أوردناه تَبيّنَ أنّ الأنبياء من بني اسرائيل من موسى بن عمران (عليه السلام) الى عيسى بن مريم (عليه السلام) أُرسلوا الى بني اسرائيل، وأنّ بعض الأحكام في شريعة التوراة

أنزلت لمصلحة بني اسرائيل. إذاً فإنّ تلك الأحكام من قبيل تحريم ما حرّمَ اسرائيل على نفسه كان أمدُها مُؤقّتاً وانتهى أمد بعضها ببعثة عيسى بن مريم (عليه السلام)، وأحلَّ لهم بعض ما حرَّم عليهم، وأمدُ البعض كان الى بعثة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم)، فجاء خاتم الأنبياء ببيان انتهاء أمدِها جميعاً كما أخبر الله سبحانه عن ذلك وقال تعالى في سورة الاعراف:

﴿الذين يتّبعُون الرّسولَ النبيَّ الأُمّيَّ الّذي يجدُونهُ مكتوباً عندَهُم في التّوراةِ والإنجيل يأمرُهم بالمعروفِ ويناهُم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرّمُ عليهم الخبائثَ ويضَعُ عنهم إصرَهم والأغلال التّي كانت عليهم...﴾ (الآية ١٥٧).

اِصرَهُم: أي التكاليف الشاقّة عليهم.

***

كان ذلكم شأن النسخ في شريعة موسى (عليه السلام) بالنسبة الى الشرائع السابقة عليها ونسخ بعض ما في شريعة موسى (عليه السلام) في شريعة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم).

ونوع أخر من النسخ ما يقع في شريعة نبيّ واحد كالآتي بيانه:

٤ ـ معنى النسخ في شريعة نبيٍّ واحد

لمعرفة معنى النّسخ في شريعة نبيٍّ واحدٍ نذكر مثالاً واحداً منه في شريعة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) كالآتي بيانه:

من أمثلة النسخ في شريعة نبيّ واحد نسخ وجوب دَفع الصّدقة على من يريد أن يناجي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما جاء في قوله تعالى في سورة المجادلة:

﴿يا أيُّها الّذين آمنوا إذا ناجيتُمُ الرّسولَ فقدّمُوا بين يدي نجواكم صدَقةً ذلك خيرٌ لكم وأطهرُ فإن لم تَجِدوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم * أأشفقتُم أن تُقدموا بين يدَي نجواكم صَدقاتٍ فإذ لم تفعَلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصّلاةَ واتُوا الزّكاةَ وأطيعوا الله ورسولَهُ واللهُ خبيرٌ بِما تعملون﴾ (الآيات ١٢ ـ ١٣).

وجاء تفصيل الخبر في التفاسير كالآتي:

إنّ البعض من أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يكثرون مناجاة النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، يظهرون

٤٩١٩

بذلك نوعاً من التقرب اليه والاختصاص به، وكان من مكارم أخلاق الرسول (ﷺ) أنّه لم يكن يردّ طلب ذي حاجة اليه، وكان ذلك يضايق النبيّ (ﷺ) ويصبر عليه، فنزل حكم أداء الصدقة لمن يريد أن يناجي الرسول (ﷺ)، فترك أولئكم نجوى الرسول وصَرفَ علي بن أبي طالب ديناراً بعشرة دراهم، وتصدّق بها عشر مرّات، وناجى الرسول (ﷺ) في ما كان يهمّه، ولمّا تحققّت الغاية في تربية أولئك بهذا الحكم، وانتهى أمَدُ الحكم، رُفعَ الحُكمُ[٢٤].

خلاصة بحث النّسخ ونتيجته

كان يوم الجمعة يوماً مباركاً ويوم راحة لبني آدم منذ عصر آدم (عليه السلام) الى عصر أنبياء بني اسرائيل: موسى بن عمران الى عيسى بن مريم (عليه السلام).

وأيضاً أجرى آدم ومن جاء بعده من الأنبياء الى عصر ابراهيم (عليه السلام) مناسك الحجّ في عرفات والمشعر ومنى وطافوا سبعاً حول مكان البيت، ثمّ بنى ابراهيم واسماعيل البيت وطافا بعد ذلك مع من تبعهما في الحجّ حول البيت.

ثمّ جدّد نوح شريعة آدم وجاء بشريعة كشريعة خاتم الأنبياء، وتبعه الأنبياء من بعده لقوله تعالى:

١ ـ ﴿شَرعَ لكم منَ الدِّين ما وصّى بهِ نُوحاً والنّبيِّين من بعده﴾.

٢ ـ ﴿وإنّ من شيعتهِ لإبراهيم﴾ ـ أي من شيعة نوح ـ

٣ ـ قوله تعالى لخاتم أنبيائه ولأُمته:

أ ـ ﴿اتّبع مِلّة ابراهيم حنيفاً﴾.

ب ـ ﴿فاتّبِعوا مِلّة ابراهيمَ حنيفاً﴾.

إذاً فإنَّ شرايع الأنبياء واحدةٌ منذ اصطفاء الصّفي آدم (عليه السلام) الى اجتباء النّبيّ الخاتم (ﷺ)، عدا ما كان من أمر الشّريعة التي أرسل الله بها أنبياء بني اسرائيل من موسى بن عمران الى عيسى بن مريم حيث لوحظ فيها مصلحة بني اسرائيل لقوله تعالى:

أ ـ ﴿كُلُّ الطّعامِ كان حِلا لبني اسرائيلَ إلّا ما حرّمَ اسرائيلُ على نفسه﴾.

٤٩٢٠

ب ـ ﴿ وعلى الّذينَ هادوا حرّمنا ما قصَصنا عليك ﴾. ـ أي على اليهود ـ

ج ـ ﴿ إنّما جُعِلَ السّبتُ على الذينَ اختلفوا فيه ﴾. ـ أي جعلَ فرضَ تعطيل يوم السبت على الذين اختلفوا فيه، وهم بنو اسرائيل ـ

وكما جاء التصريح بذلك في العدد الرابع من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: (بناموسٍ أوصانا موسى ميراثاً لجماعة يعقوب). (موسى أمرنا بسنّة ميراثاً لجماعة يعقوب).

وفي نسخة (بشريعة).

والحكمة في ذلك أنّ بني اسرائيل كانوا قوماً معاندين لأنبيائهم مشاكسين [٢٥] متابعين لأهواء نفوسهم الأمّارة بالسوء والضعيفة امام اعدائهم يتخذون العجلَ إلهاً لهم بعد أن فلق الله البحر لهم ونَجّاهم من ذلّ عبوديّة فرعون وأبوا أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي جعلها الله لهم خوفاً وهلعاً من قوم العمالقة الذين كانوا فيها، وكان تهذيب نفوسهم واصلاحها في تشديد الشرع لهم من جانب؛ بأمر المؤمنين الذين لم يعبدوا العِجلَ المرتدّين منهم بقتل الذين عبدوا العِجلَ، وتحريم العمل يوم السبت عليهم وابتلائهم بالتيه في صحراء سيناء أربعين سنة.

ومن جانب آخر لما كانوا الأُمّة المؤمنة الوحيدة في عصرهم وهي محاطة بأمم كافرة معتدية قويّة من حولهم، احتاجوا الى رباط قويّ يشدّ بعضهم الى بعض ويكون منهم أُمّة متميزة عن الآخرين، متماسكة فيما بينها، لذلك كله شرع لهم قبلة خاصّة بهم فيها التابوت الذي حوى الواح التوراة الكتاب الذي أنزله الله تشريعاً لهم وتشريعاً يناسب ظروفهم ﴿ وبَقيّةٌ مِمّا تركَ آلُ مُوسى وآلُ هارُون ﴾ (البقرة ٢٤٨)، الى غير ذلك من التشريعات المناسبة لظروف بني اسرائيل يوم ذاك.

في عصر عيسى بن مريم (عليه السلام) انتهى أمَدُ بعض تلك التشريعات بانتهاء بعض تلك الظروف، فأحلَّ عيسى (عليه السلام) بعض تلك المحرّمات بأمر من الله.

وعلى عهد خاتم الأنبياء انتشر بنو اسرائيل في البلاد وحشروا بين الناس، وكان يضيرهم ويضير الأُمم التي يعيشون بينهم أن يشعر بنو اسرائيل أنّهم ليسوا من الأمّة التي

٤٩٢١

يعيشون معها، وأنهم جسم غريب عن جيرانهم وأهل بلدهم، وكذلك يكون شعور أهل البلد مع الإسرائيلي بأنّه غريب عنهم، ومبعث قلاقل ومشاكل للمجتمع الواحد الذي يعيش الجميع فيه، ولذلك أصبحت الأحكام التي تفصلهم عن الأمم غِلا في أعناقهم، مثل تحريم العمل عليهم يوم السبت خلافاً لسائر الأُمم التي تتّخذُ غير يوم السّبت يوم راحةٍ عن العمل، وإصراً عليهم، كما ورد شرحها وتفصيلها في سفر التثنية من التوراة، فأحلّ لهم خاتم الأنبياء (ﷺ) وبأمر من الله ما حَرّمَ الله عليهم في العُصور السابقة، وقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿الّذينَ يتّبعُون الرّسولَ النّبيّ الامّيَّ الّذي يجدونه مكتوباً عندَهُم في التّوراةِ والإنجيلِ يأمرهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكَر ويُحِلُّ لهمُ الطّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم إصرَهم والأغلال الّتي كانت عليهم...﴾ (الآية ١٥٧).

وهكذا رفع الله عنهم الأحكام التي كانت تصلح لهم في العصور السابقة وأصبحت غِلا عليهم حين عايشوا الناس كلّ الناس في كلّ مكان، أمّا الأحكام التي وردت في شريعة موسى بلحاظ أنّ بني اسرائيل من الناس فلم ترفع ولم تنسخ مثل حكم القصاص، كما يخبر الله عنه ويقول في سورة المائدة:

﴿انّا أنزلنا التّوراةُ فيها هُدىً ونور يحكمُ بها النّبيُّون الذينَ اسَلمُوا للذينَ هدُوا... وكتَبنا عليهم فيها أنَّ النّفسَ بالنّفسِ والعَينَ بالعينِ والأُذُنَ بالأُذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجُروحَ قِصاصٌ فمَن تصدّقَ بهِ فهُوَ كفّارَةٌ لهُ ومَن لم يَحكُم بما أنزلَ اللهُ فأُولئِك همُ الظّالمون﴾ (الآيتان ٤٤ ـ ٤٥).

فإنّ حكم القصاص هذا كان جارياً قبل التوراة وبعدها الى اليوم، وكذلك سائر الأحكام التي شرّعها الله للإنسان بلحاظ كونه إنساناً لم تتغيّر ولم تتبدل في عصر من العصور، وفي شريعة من شرايع الأنبياء.

ولما بدّل الله بعض أحكام شريعة موسى بأحكامٍ أخرى في شريعة خاتم الأنبياء، كما شرحناه، اعترضت قريش على رسول الله كما أخبر الله عنه في سورة النحل وقال (وقالوا له إنّما أنت تفتري على الله) فردّ الله عليهم قولهم وقال سبحانه: ﴿وَإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ

٤٩٢٢

قالوا: إنّما أنتَ مُفتر ... إنما يَفتري الكذب الذين لا يُؤمنون بآيات الله.. فكُلوا مما رزقُكم الله حلالاً طيباً﴾ مثل لحم الجمل وشحوم لحم الحيوانات فهي غير محرّمة عليكم، إنَّما حرّم عليكم الميتةَ والدَّم ولحمَ الخِنزيرِ وما أُهل به لغير الله عند ذبحه، واللاتي كان المشركون في مكة يعملون بها مثل تقديمهم القرابين لأصنامهم، ثمّ نهاهم أن يفتروا على الله ويقولوا هذا حلال وذاك حرام كما شرحه الله في سورة الأنعام وقال سبحانه:

﴿وَقالوا هذهِ أنعام وحرثٌ حجرٌ لا يطعمها إلّا من نَشاءُ بزعمهم وأنعامٌ حُرمت ظهورها وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه... وقالوا ما في بُطون هذه الأنعام خالصةٌ لذُكورنا ومحرمٌ على أزواجنا وإن يكُن ميتةٍ فهم فيه شركاءُ سيجزيهم وصفهُم...﴾ (الأنعام ١٣٨ ـ ١٣٩).

وأشار اليها في سورة يونس وقال سبحانه:

﴿قُل أرأيتمُ ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتُم منه حلالاً وحراماً قُل الله أَذن لكم أم على الله تفترُون﴾ (الآية ٥٩).

وهكذا كانت مسألة التحريم والتحليل موردِ جدالٍ بين مشركي قريش ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سواءٌ ما كان منها ما هم شرعوه وخالفها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أوما شرعه الله في شرعة موسى وبدّلها الله بأخرى بحسب المصلحة في شريعة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم).

هكذا كانت قريش في مكّة تخاصم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ما أحلّ وحرّم بأمر من الله، مخالفاً للمألوف عندهم في ما اتخذوه ديناً لهم وفي ما عرفونه من شريعة موسى بن عمران، ووقعت نفس الخصومة في المدينة من اليهود مع النبيّ في بعض الأحكام التي نسخ بها بعض ما جاء في التوراة، كما شرحها الله في سورة البقرة وقال سبحانه مخاطباً لبني اسرائيل:

﴿أفكُلما جاءكُم رسولٌ بِما لا تهوى أنفسكم استكبرتُم ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلُون﴾ (الآية ٨٧).

﴿وإذا قيل لهم آمِنوا بِما أَنزلَ الله قالوا نؤمنُ بما أُنزل علينا ويكفرونَ بِما وراءه..﴾ (الآية ٩١).

٤٩٢٣

﴿ما ننسخ مِن آيةٍ أوننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها...﴾ (الآية ١٠٦).

﴿ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النصارى حتّى تتّبع ملّتهم...﴾ (الآية ١٢٠).

وإنما كانت مجادلة بني إسرائيل مع رسول الله (ﷺ) حول ما نسخ من أحكام التوراة وأهمّها نسخ القبلة إلى البيت الذي أخبر الله عنه في سورة البقرة وقال تعالى ما موجزه:

﴿قد نرى تقلب وجهكَ في السَّماءِ فلنولّينّك قِبلةً ترضاها﴾ فولوا وجُوهكم أينما كنتم شطر المسجد الحرام وإنّ الذين اوتو الكتاب سواء اليهود منهم أو النصارى يعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وأن الذين لا يتّبعون قبلتك مهما تأتهم بآية من الله لا يقبلون منك.

إذاً فإنّ المقصود من نسخ الآية في هذا المورد نسخ هذا الحكم، كما انّ المقصود من تبديل آية بأخرى في مجادلة قريش بشأنها رسول الله (ﷺ) تبديل بعض أحكام الحلال والحرام بمكة عند قريش وغير قريش.

وبناءً على هذا تبيَّن أنَّ المقصود من (آية) في قوله تعالى ﴿وإذا بدَّلنا آيةً مكانَ آية﴾: واذا بدّلنا حكماً مكان حكم.

وفي قوله تعالى: «ما نَنسخ مِن آيةٍ أو نُنسها»: ما ننسخ من حكم أو نؤجله نأت بخير منه أو مثله.

ومثال تأجيل الحكم تأجيل حكم استقبال الكعبة في شريعة موسى وتبديله بحكم استقبال بيت المقدس الذي كان فيه الخير يومذاك لبني اسرائيل.

ومثال نسخ حكم وتبديله بحكم خير منه نسخ حكم استقبال بيت المقدس في شرعة خاتم الأنبياء بحكم استقبال الكعبة للناس كل الناس أبد الدهر.

وكذلك الأمر في تبديل آية مكان آية، المقصود حكم مكان حكم.

وكذلك تبيّن أنَّ الأحكام التي يشرّعها الله للناس قد يلاحظ فيها مصلحة الانسان من حيث هو إنسان، فتلك التي لا تبديل فيها كما أخبر الله عنه في قوله تعالى في سورة الروم:

﴿فأقِم وجهَك للدين حَنيفاً فِطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديلَ لِخلقِ الله ذلك الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الآية ٣٠).

٤٩٢٤

لا تبديل لما شرّع الله للناس متناسباً مع فطرتهم مثل قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿والوالداتُ يُـــرضعن أولادهُـن حـولينِ كـاملين لِـمن أراد أن يـتمّ الرّضـاعة﴾ (الآية ٢٣٣)

سواء كانت الوالدة حوّاء زوجة آدم (عليها السلام) وترضع ولدها من آدم في ظلّ شجرة أو كهف، أو من نسلت من بعدها من مختلف العصور من سكّان الكهوف أو الخيم أو القصور.

وكذلك لا يتغيّر حكم الصوم لبني آدم والقصاص وحرمة الرّبا كما قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

أ ـ ﴿يَا أيُّها الذين آمنُوا كُتب عليكم الصِّيام كما كُتب على الذين من قبلكُم﴾ (الآية ١٨٣).

ب ـ ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُتب عليكُم القِصاص..﴾ (الآية ١٧٨).

ج ـ ﴿وأحل الله البيعَ وحرَّم الرِّبا..﴾ (الآية ٢٧٥).

إلى غيرها ممّا شرّعه الله للإنسان متناسباً مع فطرته التي فطره عليها، فإنَّ أحكامها لا تتبدَّلُ في شريعة عن شرعة أخرى من شرايع الأنبياء ويعبّر عن تلكم الأحكام في القرآن بلفظ (وصّى الله ويوصيكم وصيّته) و(كتب كتابه).

وما شرّع الله لبعض الاناس متناسباً مع ظروفهم الخاصة بهم فتلك ينتهي أمدها بانتهاء تلك الظروف، مثل ما ذكرنا من الأحكام التي شُرعَت لبني اسرائيل متناسباً مع ظروفهم الخاصّة لهم، وما شرع الله للمهاجرين مع النبي من مكّة الى المدينة من التوارث بينهم وبين من تآخى معهم من الأنصار في بدأ الهجرة، ثمّ انتهى أمده بعد فتح مكّة، ونسخ الحكم كما أخبر الله عنه في الآيات (٧٢ ـ ٧٥) من سورة الأنفال بقوله تعالى:

﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا... من مكّة ـ والذّين آووا ونصرُوا ـ وهم الأنصار في المدينة ـ أولئك بعضُهم أولياءُ بعضٍ ـ ولاية الإرث والنصرة ـ والذّين آمنوا ولم يُهاجروا مالكُم مِن ولايتِهم من شيءٍ حتّى يُهاجروا... والذين كفَروا بعضُهم أولياء بعض...﴾.

ثمّ أخبر الله بنسخ هذا الحكم بقوله تعالى: ٤٩٢٥

﴿وأُولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله أي في ما كتب الله وشرّع للناس

كل الناس﴾[٢٦].

وفي سورة آل عمران قال تعالى:

﴿وقَتلهُم الأنبياءَ بغير حقّ... قُل قد جاءكم رُسلٌ من قَبلي بالبيّنات... فلمَ قتلتموُهم فإنّ كذبُوك فقد كُذبَ رُسلٌ من قَبلك﴾ (الآيات ١٨٠ ـ ١٨٤).

لمّا جاء اليهود القرآن من عند الله وكانت صفات القرآن تصدّق الأخبار التي عندهم عن بعثة الرسول الخاتم بالقرآن كفروا به وقالوا نؤمن بالتوراة التي انزلت علينا ويكفرون بغيرها من الإنجيل والقرآن وأخبر الله أنّه أنزل إليه آيات واضحات في القرآن وما أوتي من معجزات وأحكام في القرآن وما يكفر بها إلّا الفاسفون وقال سبحانه: ما ننسخ من أحكام شريعة مثل نسخ استقبال بيت المقدس أو نُنسها ونؤجل بيانها بأحكام خير منها للناس أو بمثلها، والله هو مالك السموات والأرض يفعل ما يشاء، وإنّ اليهود والنصارى لن ترضى عن رسول الله حتى يترك ما نزل عليه من أحكام الشريعة ويتّبع أحكام شريعتهم.

وكرّر الله سبحانه هذا المفهوم بلفظ آخر في سورة الإسراء وقال:

﴿وآتينا مُوسى الكتابَ وجعلناهُ هُدىً لبني إسرائيل﴾، ثم قال: ﴿إنّ هذا القُرآن يهدي للّتي هي أقومُ﴾ ممّا في كتاب موسى (عليه السلام).[٢٧]

٤٩٢٦

الهوامش:

١. الفهرست ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠.
٢. صحيح مسلم (٥ / ٥) كتاب الجمعة باب فضل الجمعة، وطبقات ابن سعد ط. أوربا (١ / ٨)، ومسند أحمد (٢/ ٢٣٢ و٣٢٧ و ٥٤٠).
٣. اخبار مكة للازرقي (ت ٢٢٣ هـ). ط مدينة غتنفة عام ١٢٧٥ هـ ص ٣١.
٤. مادّة الجمعة من سفينة البحار.
٥. طبقات ابن سعد ط. أوربا (ج ١ ق ١ / ١٢ و ١٥ و٢٦)، ومسند أحمد (٥ / ١٧٨ و ١٧٩ و ٢٦٥)، ومسند الطيالسي الحديث ٤٧٩، وفي البحار (١١ / ١٦٧ ـ ١٩٧) روايات متعدّدة مع اختلاف وزيادة ونقيصة في كيفية حجّ آدم (عليه السلام).
٦. البحار (٣ / ٢٤٨ ـ ٢٥٢) وصحيح البخاري (٣ / ١٣٩) بتفسير سورة نوح.
٧. معجم الفاظ القرآن الكريم، مادّة وصّى.
٨. تفسير الآية في التبيان (٢ / ٥٥٣)، ومجمع البيان (٩ / ٢٤).
٩. لسان العرب، مادّة شيع.
١٠. تفسير الآية في التبيان (٢ / ٤٩٢) ط. الحجر في ايران ١٣٦٥ هـ
١١. وكذلك تعدّد تفسيره في تفسير الآية في التبيان ومجمع البيان وتفسير الطبري وابن كثير والدّر المنثور للسيوطي.
١٢. البقرة الآية ١٤٠.
١٣. الضرّع: مدّر اللبن، يقال: ماله زرع ولا ضرع.
١٤. راجع تفسير الآيتين الكريمتين: ٧٢ و ٧٥ في سورة الأنفال بتفسير الطبري (١٠ / ٢٦ ـ ٢٧)، وتفسير ابن كثير (٢ / ٣٢٨، ٢٢١) وتفسير الدر المنثور (٢ / ٢٠٧).
١٥. راجع تفصيل البحث ومصادره في بحث مصطلحات اسلامية من المجلد الأول من القرآن الكريم وروايات المدرستين.
١٦. امتازت بطبع اللون الأحمر مع الأسود للكلمات ـ في العهد الجديد فقط ـ وسميت بـ Red .Lettter Edition
١٧. راجع تفسير الآية في تفسير الطبري.
١٨. راجع رواية القرطبي والطبري عن سعد بن أبي وقّاص في تفسير الآية.
١٩. مادّة بدل من كتاب التحقيق في مفردات القرآن نقلاً عن الاوائل للعسكري.
٢٠. المعجم الوسيط مادّة (سلوى).
٢١. هكذا ورد في تفسير الآية في البحار في أخبار موسى وهارون وتفسير المجمع.
٢٢. سيرة ابن هشام ط. الحجازي بالقاهرة (٢ / ١٦٨ ـ ١٦٩) وكان ما ذكرناه في المتن جاء في تفسير الطبري والسيوطي، ونرى أنّ ما جاء في سيرة ابن هشام أصحّ مما أثبتناه في المتن.
٢٣. راجع مادّة السّبت في قاموس الكتاب المقدّس وتفسير الآية في تفسير الطبري وابن كثير والسيوطي.
٢٤. راجع تفسير الآية بتفسير الطبري وسائر التفاسير التي تعتمد الروايات في تفسير الآيات.
٢٥. مشاكسين: سيّئو الخلق عسر والمعاملة، والهلع: الجزع الشديد.
٢٦. تفسير الآية في مجمع البيان والطبري وسائر التفاسير بالمأثور.
٢٧. نشرت هذه المقالة استناداً للموافقة الخطية الصادرة من سماحة العلامة السيد مرتضى العسكري (قده).

٤٩٢٧